سُورَةُ المَائِدَة

مدنية وهي مائة وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا
يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ
ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًاۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ
قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ
وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ العقود جمع عقد، وأصل العقد الربط محكماً، ثم أُطلق على العهد الموثق، واختلفوا في المراد بهذه العقود، فروي عن ابن عباس أن العقود هي ما أخذه الله تعالى على عباده من الإيمان به، وطاعته في الأمر، والنهي. وروي عن زيد بن أسلم العقودُ بين الناس كعقد النكاح، والبيع، ونحوهما، والأظهر أنه يعمُّ جميع ما ألزمه الله تعالى عباده، وما يعقدون فيما بينهم، مما يجب الوفاء به، أو يحسن ديناً، وبه قال الراغب لأنه أوفق بعموم اللفظ ﴿أُحِلَّتْ لَكُم

obeikandl.com

﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهي الأزواج الثمانية الإبل، والبقر، والغنم، والماعز، وألحق بها الظباء وبقر الوحش مما يماثل الأنعام في الاجترار، وعدم الأنياب، والبهيمةُ: ما لا عقل له مطلقاً، سميت بهيمة لما في صوتها من الإبهام، وفي الآية رد على المجوس، فإنهم حرموا ذبح الحيوانات وأكلها، وقالوا: لأن ذبحها إيلامٌ وهو قبيح، ولا يرضى به الإله الرحيم الحكيم!! وهذا منهم سفه وجهل، فإن الله خلقها لمنافع البشر، وفي ذبحها بالطريق الشرعي راحة لها، كما قال ﷺ: «وليُحِدَّ أحدُكم شفرته ولْيرحْ ذبيحته»[1] ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ من المحرمات، وهي الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وغيرها من المحرمات التي نهى الله عنها ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي غير مستحلين للصيد وأنتم محرمون، والحُرُم: جمع حرام وهو المحرم، ومحصَّل المعنى: أحلت لكم هذه الأشياء، غير مستحلين الاصطياد، أو أكل الصيد، في الإحرام بالحج أو العمرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ من الأحكام، حسبما تقتضيه مشيئته، المبنيَّةُ على الحِكَم البالغة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ إحلال الشعائر أن يتهاون بحرمتها، وإضافتها إلى الله تعالى لتشريفها، وتهويل الخطب في إحلالها ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي لا تحلوه بالقتال فيه، والمراد به: الأشهر الحُرُم والإفراد لإرادة الجنس ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾بأن يتعرض له بالغصب، أو بالمنع عن بلوغ محله، والهديُ، ما يُهدى إلى الكعبة من الأنعام، خصه بالذكر مع أنه داخل في الشعائر، تعظيماً له ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ جمع قلادة، وهي: ما يقلَّد به الهدي، من نعلٍ، أو لحاءِ شجر، ليعلم به أنه هدي، وعطفها على الهدي مع دخولها فيه، لمزيد التوصية بها، وهي سنة إبراهيم عليه السلام، وأقرَّها الإسلام قالت عائشة رضي الله عنها: «أهدى رسول الله ﷺ مرة إلى

---

(١) طرف من حديث شريف أخرجه مسلم رقم ١٩٥٥ والترمذي رقم ١٤٠٩، ولفظه الكامل «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبح، ولْيُحِدَّ أحدكم شفرته، ولْيُرِح ذبيحتَه».

البيت غنماً فقلَّدها»[1] ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي لا تُحلوا قوماً قاصدين زيارته، بأن تصدوهم عن ذلك بأي وجه كان، بقتال، أو بأذى ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي قاصدين زيارته، حال كونهم طالبين أن يثيبهم الله، ويرضى عنهم، وتنكيرُ الفضل والرضوان للتفخيم والمراد بهم المسلمون خاصة ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ من الإحرام ﴿فَٱصْطَادُوا۟﴾ أي فلا جناح عليكم بالاصطياد، لزوال المانع، فالأمر للإباحة بعد الحَظْر ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي لا يحملنّكم، أو لا يُكسبنّكم، وجَرَم من باب ضَرَب، اكتسب ذنباً، ويستعمل غالباً في كسب ما لا خير فيه ﴿شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ أي شدّة بغضكم لهم، والشنآن: هو شدّة البغض والعداوة ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ أي لأن صدوكم عام الحديبية ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عن زيارته، وطوافه للعمرة ﴿أَن تَعْتَدُوا۟﴾ أي عليهم وإنما حذف تعويلاً على ظهوره وإيماء إلى أن المقصد الأصلي منع صدور الاعتداء من المخاطبين محافظة على تعظيم الشعائر ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ عطف على ﴿ولا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ كأنه قيل: لا تعتدوا على قاصدي المسجد الحرام، لأجل أن صُدِدتم عنه، وتعاونوا على العفو والإغضاء، واختار غير واحد أن المراد بالبر متابعة الأمر مطلقاً، وبالتقوى اجتناب الهوى، لتصير الآية من جوامع الكلم، فيدخل في البر والتقوى جميع مناسك الحج ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ ليعُمَّ النهيُ كل ما هو من مقولة الظلم والمعاصي، فاندرج فيه النهي عن التعاون على الاعتداء، وعن ابن عباس وأبي العالية أنهما فسرا الإثم بترك ما أمر الله تعالى به، وارتكاب ما نهاهم عنه، والعدوان بمجاوزة ما حدَّه سبحانه لعباده في دينهم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في جميع الأمور التي من جملتها مخالفة ما ذكر من الأوامر والنواهي، ثم علَّل ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن لم يتقِّ الله، فيعاقبكم إن لم تتقوه.

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ ٤٧٣ ومسلم رقم ١٣٢١ في الحج، وهذه رواية مسلم، وانظر جامع الأصول ٣/ ٣٤١.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ شروع في بيان المحرمات التي أشير بقوله: ﴿إلا ما يُتلى عليكم﴾ ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ التي ماتت بالخنق مطلقاً، إما في وثاقها، أو بإدخال رأسها في موضع لا تقدر على التخلص منه، أو بغير ذلك، وعن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة وإذا ماتت أكلوها ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ التي قُتلت بالضرب كان أهل الجاهلية يضربون الشاة بالعصا حتى تموت ويأكلونها ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي تردت من علو، أو في بئر فتموت ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ أي التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ أي وما أكل منه السبع فمات ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أي إلاَّ ما أدركتم ذكاته، وفيه بقية حياة، وذكيتموه، والاستثناء يرجع إلى المنخنقة وما بعدها، سوى ما لا يقبل الذكاة من الميتة، والدم، والخنزير، وهذا قول ابن عباس والحسن، وقال الكلبي: مما أكل السبع خاصَّة، وقيل: هو استثناء من التحريم لا من المحرمات، فالمعنى: حُرِّم عليكم سائر ما ذُكر، لكن ما ذكيتم مما أحله الله تعالى بالتذكية فإنه حلال لكم، وروي ذلك عن مالك وجماعة من أهل المدينة، والتذكيةُ: قطعُ الحلقوم، والمريء بمحدَّد ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ جمع نصاب وهي أحجار

كانت منصوبة حول البيت، يذبحون عليها ويعدُّون ذلك قربة، وقيل: هي الأصنام وعلى بمعنى اللام أي وما ذُبح للأصنام، أو ما ذبح مسمًّى على الأصنام ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ روي عن مجاهد أنه فسَّر الأزلام بسهام العرب التي يتقامرون بها، أي وحُرم عليكم الاستقسام بالأقداح، وذلك أنهم إذا قصدوا فعلاً، ضربوا ثلاثة أقداح مكتوبٌ على أحدهما أمرني ربي، وعلى الثاني نهاني ربي، وأبقوا الثالث غُفْلا، فإن خرج الآمر مضوا إلى حاجتهم، وإن خرج الناهي اجتنبوا، وإن خرج الغُفْل أعادوها ثانياً، وإذا كان لأحدهم أمر عظيم، جاء إلى «هُبَل» واستشفع منها، وأعطى مائة درهم لصاحب القداح حتى يحلها له ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام ﴿فِسْقٌ﴾ تمرد وخروج عن الحدود، وضلال باعتقاد أنه طريق إلى العلم بالغيب، وعن ابن عباس أن ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى تناول جميع ما تقدَّم من المحرمات ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أي الزمان الحاضر. وقيل يوم نزول الآية، وقد نزلت بعد عصر الجمعة، يوم عرفة، في حجة الوداع والنبي ﷺ واقف بعرفات على العضباء، كما رواه الشيخان ﴿يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ﴾ اليأس انقطاع الرجاء، والمراد انقطاع رجائهم من إبطال دينكم، أو من أن يغلبوكم عليه، حيث أظهره الله على الدين كله، وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أن يظهروا عليكم ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ أن أحلَّ بكم عقابي، إن خالفتم أمري، وارتكبتم معصيتي ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بالتوقيف على أصول الشرائع، وقوانين الاجتهاد، وعن ابن عباس المعنى: أكملت لكم حدودي وفرائضي، وحلالي وحرامي، وهو الأظهر حيث لم ينزل بعد ذلك من الفرائض تحليل ولا تحريم، وأنه ﷺ لم يلبث بعدها سوى إحدى وثمانين يوماً، ومضى إلى الرفيق الأعلى ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ وإتمام النعمة بفتح مكة، وهدم منار الجاهلية، وقيل: بإتمام الهداية والتوفيق ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ أي اخترته لكم من بين الأديان، وهو الدين المقبول عند الله لا غيره قال الله تعالى: ﴿ومن يَبْتَغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ متصل بذكر

المحرمات، وما بينهما اعتراضٌ، أي فمن اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ أي مجاعة يخاف الموت أو مباديه، يُقال: خَمُصَ الشخص مثل قَرُبَ فهو خُميصٌ: إذا جاع ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ غير مائل إليه، بأن يأكلها تلذذاً، أو مجاوزاً حدَّ الرخصة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لا يؤاخذه بأكله، لأنه عن ضرورة، والضروراتُ تُبيح المحظورات.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ أي يسألك المؤمنون ما أُحِلَّ من المطاعم والمآكل، ومن الصيد والذبائح ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ أي ما لم تستخبثه الطباع السليمة، وما لم يدل نص أو قياس على حرمته، قال الله تعالى: ﴿ويحلُّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾ ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ أي صيد ما علمتموه، والجوارح جمع جارحة، والهاء فيها للمبالغة، وفسرت بالكواسب من سباع البهائم والطير، سميت جوارح لأنها تجرح الصيد غالباً، كالكلب، والفهد، والبازي، والشاهين، ويشترط للحل الجرح ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ من التكليب وهو تعليم الجوارح، مشتق من الكَلب لأن التأديب يكون أكثر فيه، والمُكَلِّبُ: مؤدِّب الجوارح ومغريها ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من الحيل وطرق التأديب، فإن العلم بها إلهام، أو مما علمكم أن تعلموه، من اتباع الصيد بإرسال صاحبه، وينزجر بزجره، ويمسك عليه الصيد، ولا يأكل منه ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وهو ما لم يأكل منه، أي فكلوا بعض ما أمسكنه لأجلكم، وقد قال النبي ﷺ لعديّ بن حاتم: «إذا أرسلتَ كلبك المعلَّم، وذكرتَ اسم الله عليه، فكل»[1] ففي الحديث أن إرسال الصائد، وكون الكلب معلَّماً، وذكر اسم الله تعالى عليه وقت

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١/ ٢٤٤ ولفظه عن عديّ بن حاتم قال: سألت الرسول ﷺ فقلت: إنَّا قومٌ نتَصيّد بهذه الكلاب، فقال: «إذا أرسلتَ كلبك المعلَّم وسمّيتَ، فأمسكَ وقَتَل فكُلْ، وإن أكل فلا تأكل..» الحديث، ورواه مسلم في الصيد رقم ١٩٢٩.

الإرسال شرط لقوله ﷺ: «فإن أكل منه فلا تأكل» وإلى هذا ذهب أكثر الفقهاء، وقال أبو حنيفة: إذا أكل الكلب من الصيد وهو غير معلَّم لا يؤكل صيده، وإذا أكل الصقر فكل، لأن الكلب تستطيع أن تضربه، والصقر لا تستطيع أن تضربه، وقال مالك: يؤكل وإن أكل الكلب منه، لحديث: «إذا أرسلتَ كلبك، وذكرتَ اسم الله عليه، فكل وإن أكل منه»[1] ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي سمُّوا عليه عند إرساله، والأمر للوجوب عند أبي حنيفة، وعند الشافعي للندب ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في محرَّماته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤﴾ فيحاسبكم بما جلَّ ودق.

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني الآن ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ كُرّر تأكيداً للمِنّة، وتوطئةً لما بعده ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ يتناول الذبائح وغيرها، ويعمُّ اليهود والنصارى، ولا يلحق بهم المجوس، لقوله ﷺ: «سنُّوا بهم سُنَّة أهل الكتاب، غير ناكحي نسائهم، ولا آكلي ذبائحهم»[2] وهو وإن كان مرسلاً إلا أن إجماع أكثر المسلمين يؤكّده، واختلف العلماء في حل ذبيحة اليهودي والنصراني، إذا ذكر عليها، غير اسم الله، فقال ابن عمر: لا تحل، وذهب أكثر أهل العلم إلى أنها تحل، وقال الحسن: إذا

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصيد رقم ٢٨٥٠ وعلى هذه الرواية يجوز الأكل من الصيد وإن أكل منه الكلب وهو مذهب مالك رحمه الله.

(٢) أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي، وانظر الدر المنثور للسيوطي.

ذبح اليهودي والنصراني، فذكر اسم غير الله وأنت تسمع فلا تأكل، فإذا غاب عنك فكل ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ فلا حرج عليكم أن تطعموهم، وتبيعوا منهم فإن قيل: ما الحكمة في هذه الجملة وهم كفار؟ أجيب بأن المعنى انظروا إلى ما أحل لكم في شريعتكم، فإن أطعموكم فكلوه، ولا تنظروا إلى ما كان محرماً عليهم، فإن لحوم الإبل ونحوها كانت محرمة عليهم، فالآية بيان لنا لا لهم، فحاصل المعنى: طعامهم حل لكم إذا كان من الطعام الذي أحللته لكم ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي الحرائر العفائف، وتخصيصهن بعثٌ على ما هو أولى، لا لنفي ما عداهن، فإن نكاح الإماء المسلمات صحيح بالاتفاق، وكذا نكاح غير العفائف منهن ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ذهب أكثر الفقهاء إلى أنه يحل التزوج بالذمية من اليهود والنصارى، وتمسكوا فيه بهذه الآية، وكان ابن عمر لا يرى ذلك، ويحتج بقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنَّ﴾ ويؤيد هذا القول الآية الدالة على وجوب المباعدة عن الكفار، كقوله تعالى: ﴿لا تتخذوا بطانةً من دونكم﴾ قال كثير من الفقهاء: إنما يحل نكاح الكتابية التي دانت بالتوراة والانجيل قبل نزول القرآن، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿من قبلكم﴾ .

﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن، وتقييد الحل بإيتائها لتأكيد وجوبها والحث على الأولى ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أعفَّاء بالنكاح ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي غير مجاهرين بالزنا، وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه سئل عن المسافحة، قال: هي التي إذا ألمح الرجل إليها بعينه اتَّبعتْه ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ أي ولا مسرين به، والخدنُ: الصديق، يقع على الذكر والأنثى ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي ومن ينكر شرائع الإسلام التي من جملتها ما بُيِّن ههنا من الأحكام المتعلقة بالحل والحرمة، ويمتنع عن قبولها ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ الصالح الذي عمله قبل ذلك ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ إذا مات على ذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ شروع في بيان الشرائع التي تتعلق بدينهم، بعد بيان ما يتعلق بدنياهم ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي إذا أردتم القيام إليها كما في قوله تعالى: ﴿وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ وظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم إليها، وإن لم يكن محدثاً، لما أن الأمر للوجوب، والإجماع على خلافه، لما روي أنه صلى الله تعالى عليه وسلم صلَّى الخمس بوضوء واحد يوم الفتح، ومسح على خفَّيْه فقال عمر: «لقد صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه؟ فقال ﷺ: عمداً صنعتُه يا عمر»[1] يعني بياناً للجواز، فظهر أن الآية مقيدة، والمعنى إذا قمتم إلى الصلاة محدثين، بقرينة دلالة الحال واشتراط الحدث في التيمم، الذي هو بدل، وما نقل عن النبي ﷺ والخلفاء أنهم كانوا يتوضَّؤُنَ لكل صلاة، فلا يدلُّ على أكثر من الندب ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ أي أسيلوا عليها الماء، وحدُّ الإسالة أن يتقاطر الماء ولو قطرة، ولا حاجة إلى الدلك، خلافاً لمالك ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ الجمهور على دخول المرفقين، ولذلك

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الطهارة رقم ٢٧٧، باب جواز الصلوات كلّها بوضوء واحد.

قيل: إلى بمعنى «مع» كقوله تعالى: ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ وقال الشافعي: لا أعلم خلافاً في أن المرافق يجب غسلها ﴿ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ المراد إلصاقُ المسح بالرأس، فكأنه قيل ألصقوا المسح برؤوسكم، وذلك لا يقتضي الاستيعاب كما يقتضيه ما لو قيل: وامسحوا رؤوسكم، فإنه كقوله تعالى: ﴿فاغسلوا وجوهكم﴾ واختلف العلماء في قدر الواجب، فأوجب الشافعي أقل ما ينطلق عليه الاسم أخذاً باليقين، وأبو حنيفة أخذ ببيان رسول الله ﷺ حيث مسح ناصيته، وقدرها ربع الرأس، ومالك مسح الكل أخذاً بالاحتياط، والإمام أحمد في أظهر الرواية عنه، إلى أنه يجب استيعاب الرأس بالمسح ﴿ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ منصوبٌ عطفاً على ﴿وجوهكم﴾ ويؤيده السنة الشائعة وعمل الصحابة، والتحديد إذِ المسحُ لم يحدَّد وذهب جمهور العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة إلى أن فرض الرجلين هو الغسل، وشذت الشيعة فقالوا: إن الواجب في الرجلين المسحُ وما يزعمه الشيعة من نسبة المسح إلى ابن عباس كذبٌ عليه[1] ﴿ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ اغسلوا أبدانكم، والمعنى: إذا قمتم إلى الصلاة وكنتم جنباً فطهِّروا أبدانكم كاملاً، والدليل على إرادة الغسل قوله تعالى: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾ والمضمضة والاستنشاق هنا فرض، لأنه سبحانه أضاف التطهير لجملة البدن، فيدخل كل ما يمكن الإيصال إليه ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾

---

(١) روى البخاري ومسلم عن حمران مولى عثمان بن عفان أن عثمان رضي الله عنه دعا بإناءٍ، فأفرغ على كفَّيه ثلاث مرات فغسلها، ثم أدخل يمينه في الإناء فمضمض واستنثر، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ويديه إلى المرفقين ثلاثاً، ثم مسح برأسه، ثم غسل رجليه ثلاث مرات، ثم قال: «رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا». وعن خالد أن النبي ﷺ: «رأى رجلاً يصلّي، وفي قدمه لمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء، فأمره النبي ﷺ أن يعيد الوضوء والصلاة» أخرجه أبو داود، فدلت هذه الأحاديث على وجوب غسل الرجلين، بأمره ﷺ وفعله، فتنبَّه والله يرعاك.

أي اقصدوا التراب الطاهر، إذا لم تجدوا الماء، فامسحوا بذلك التراب وجوهكم وأيديكم، للحدث الأصغر والأكبر، نيابةً عن الوضوء والغسل ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ بما فرض عليكم من الوضوء، والغسل، والتيمم ﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ من ضيق في الامتثال ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ﴾ بذلك ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ أي ليطهركم من الذنوب، فإن الوضوء تكفير للذنوب والخطايا، لما روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه، خرجت كل خطيئة مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب»[1] فالطهارة معنوية بمعنى تكفير الذنوب لا بمعنى إزالة النجاسة لأن الحدث ليس نجاسة بلا خلاف ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أي ليتم بشرعية ما هو مطهرة لأبدانكم، نعمته عليكم في الدين، أوليتمَّ برُخَصِه إنعامه عليكم بعزائمه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته بطاعتكم فيما أمركم به، ونهاكم عنه.

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام لتذكّركم المنعم وترغّبكم في شكره ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يعني الميثاق الذي أخذه على المسلمين، حين بايعهم النبي ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وإضافة الميثاق إليه تعالى مع صدوره عنه ﷺ لكون المرجع إليه تعالى، كما نطق به قوله تعالى: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾[2] ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بخفياتها فيجازيكم عليها، فضلاً عن جليات أعمالكم.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة رقم ٢٣٤ ولفظه: «إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئةٍ نظر إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئةٍ بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب» فدلَّ الحديث على وجوب غسل الرجلين.

(٢) سورة الفتح، آية: ١٠.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ ﴾ أي بالعدل ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ ﴾ أي لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين، على ترك العدل فيهم، فتعتدوا عليهم، بارتكاب ما لا يحلُّ كمُثْلةٍ، وقذف، وقتل نساء وصبية، ونقض عهد، تشفياً مما في قلوبكم ﴿ ٱعْدِلُواْ ﴾ أيها المؤمنون في أوليائكم وأعدائكم ﴿ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ أي العدل أقرب للتقوى، وإذا كان هذا العدل مع الكفار، فما ظنك بالعدل مع المؤمنين؟ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ ﴾ أمر سبحانه بالتقوى اعتناءً بشأنها، وتنبيهاً على أنها ملاك الأمر كله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيكم به، روي أنه لما فتحت مكة كلف الله المسلمين بهذه الآية، أن لا يكافئوا كفار مكة بما سلف منهم، ولذلك عفا الرسول ﷺ عنهم، وسمُّوا الطُّلقاء.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ من الواجبات والمندوبات التي من جملتها العدالة والتقوى ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ لخطيئاتهم ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي ثواب عظيم لأعمالهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ القرآنية التي من جملتها ما تليت من النصوص الناطقة بالعدل والتقوى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي ملابسو النار المؤبدة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ تذكير لنعمة الإنجاء من الأشرار، الذين أرادوا الفتك بالمؤمنين وتذكير لهم نعمة إيصال الخير، وهو نعمة الإسلام وما يتبعها من الميثاق ﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ ﴾ أي قصد قوم ﴿ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ بأن يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك، يقال: بَسط إليه يده، إذا بطش به، وبسط إليه لسانه، إذا شتمه ﴿ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ أي منع أيديهم أن تمد إليكم عقيب همهم بذلك والآية إشارة إلى ما أخرجه مسلم من حديث جابر: «أن المشركين رأوا أن رسول الله ﷺ وأصحابه بعسفان، قاموا إلى صلاة الظهر معاً، فلما صلّوا ندموا ألاّ كانوا أكبُّوا عليهم، وهمُّوا أن يوقعوا بهم إذا قاموا إلى صلاة العصر، فرد الله تعالى كيدهم، بأن أنزل صلاة الخوف»[1] وقيل: إشارة إلى ما رواه جابر أن النبي ﷺ نزل منزلاً، فتفرق الناس في العِضَاه ـ أي الشجر ـ يستظلون تحتها، فعلّق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيفه فأخذه فسلّه، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال: «من يمنعك مني؟ قال: الله

(١) أخرجه مسلم في باب صلاة الخوف ١/ ٥٧٤.

تعالى فسقط السيف من يده. . .»[1] الحديث، ولا يخفى أن سبب النزول يجوز تعدده ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي اتقوه في حقوق نعمته، ولا تُخِلُّوا بشكرها ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أي عليه تعالى خاصة دون غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه تعالى يكفيهم في إيصال كل خير، ودفع كل شر.

﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كلام مستأنف، مشتمل على ذكر بعض ما صدر عن بني إسرائيل من الخيانة، ونقض الميثاق، وما أدى إليه من التبعات، مسوقٌ لتقرير المؤمنين على ذكر نعمة الله، ومراعاة حق الميثاق، الذي واثقهم به، وتحذيرهم من نقضه ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ النقيب مشتق من النقب، وهو التفتيش ومنه قوله تعالى: ﴿فنقبوا في البلاد﴾ فسمِّي بذلك لتفتيشه عن أحوال القوم، ومعناه العريفُ، وهو شاهد القوم وضمينهم، روي أن بني إسرائيل لما فرغوا من أمر فرعون، أمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا، وكان يسكنها الجبابرة وأمر جل شأنه موسى أن يأخذ من كل سبط كفيلاً عليهم، بالوفاء فيما أُمروا به، فأخذ عليهم الميثاق، واختار منهم النقباء وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان، بعث النقباء يتجسسون الأخبار، ونهاهم أن يحدِّثوا قومهم فرأوا أجراماً عظاماً وبأساً شديداً فهابوا فرجعوا وحدثوا قومهم وعند ذلك قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا ههنا قاعدون﴾[2] ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ أي لبني إسرائيل ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعلم والقدرة والنصرة ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى﴾ أي بجميعهم، وتأخير الإيمان عن الصلاة والزكاة، لما أنهم كانوا معترفين بوجوبهما، مع ارتكابهم تكذيب بعض الرسل، ولمراعاة المقارنة بينه وبين قوله تعالى ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي نصرتموهم وقويتموهم، قال الراغب:

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٧/ ٣٢٨ ومسلم في صلاة المسافرين رقم ٨٤١. وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ١١/ ٣٧٨.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢٤.

التعزيرُ: النصرة مع التعظيم ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ﴾ بالإنفاق في سبيل الخير ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو ما كان عن طيب نفس، من مالٍ حلال ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي إذا فعلتم ما أمرتكم به، لأمحونَّ عنكم سيئاتكم ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ عطف على ما قبله، داخلٌ معه في حكمه ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ أي برسلي، أو بشيءٍ ممَّا ذُكر من الأمور ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ أي بعد الشرط المؤكد، المعلَّق بالوعد العظيم، وليس المراد بالكفر إحداثه بعد الإيمان، بل ما يعمُّ الاستمرار عليه، كأنه قيل: فمن اتصف بالكفر بعد ذلك ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وسط الطريق الواضح، ضلالاً بيناً لا عذر معه أصلاً.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي بسبب نقضهم ميثاقهم المؤكد لا بشيء آخر ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾ طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، عقوبة لهم ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ بحيث لا تتأثر من الآيات والنُّذُرِ، ومعنى جعل قلوبهم قاسية، أن نقض الميثاق كان مبعداً لهم عن رحمة الله، ومقسِّياً لقلوبهم، حتى لم تؤثر فيها حجة وموعظة، وليس كما يزعمه الجبرية، من أنه شيء عاقبهم الله به، ولم يكن متسبباً عن أعمالهم الاختيارية، وإنما هو ناشىء عن ضلالهم، وهذا كما تقول لغيرك: أفسدت

الاختيارية، وإنما هو ناشىء عن ضلالهم، وهذا كما تقول لغيرك: أفسدت سيفك، إذا تَرَكَ تعاهده حتى صَدِىء، وجعلتَ أظافرك سلاحَك، إذا لم يقصَّها ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ استئنافٌ لبيان سبب قساوة قلوبهم، وهو الاجتراء على تغيير كلام الله تعالى، والافتراء عليه، والتعبيرُ بالمضارع لاستحضار الصورة، وللدلالة على التجدد والاستمرار ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا﴾ أي تركوا نصيباً وافراً، واستعمال النسيان بهذا المعنى كثير ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ من التوراة، فقد حرَّفوها فسقطت أشياء منها عن حفظهم، وأضاعوا كتابهم عندما أحرق البابليُّون بلادهم ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي خيانة منهم، والمعنى أن الخيانة والغدر من عادتهم، وعادة أسلافهم، لا تزال ترى ذلك منهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ الذين آمنوا، منهم ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ أي إن تابوا وآمنوا، أو عاهدوا والتزموا الجزيةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل للأمر، وحثٌّ على الامتثال به، وتنبيهٌ على أنَّ العفو على الإطلاق من باب الإحسان.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ شروع في بيان قبائح النصارى إثر بيان قبائح اليهود أي وأخذنا من النصارى ميثاقهم، كما أخذنا ممن قبلهمْ من الإيمان بالله والرسل، وإنما نَسَب تسميتهم نصارى إلى أنفسهم، دون أن يقال: ومن النصارى إيذاناً بأنهم في قولهم: «نحن أنصار الله» بمعزل من الصدق، إنما هو تقوُّلٌ محضٌ منهم، وليسوا من نصرة الله في شيء، فإن ادعاءهم لنصرته تعالى، يستدعي ثباتهم على طاعته سبحانه ومراعاة ميثاقه ﴿فَنَسُوا۟﴾ إثر أخذ الميثاق ﴿حَظًّا﴾ نصيباً وافراً ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ من الإيمان بالله، والإيمان بالنبي ﷺ فنبذوه وراء ظهورهم، واتبعوا أهواءهم وتفرقوا ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾ أي ألزمنا وألصقنا، والغِراء الذي يلصق به الشيء، أي فألقينا ﴿بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يتعادون إلى يوم القيامة، حسبما تقتضيه أهواؤهم المختلفة، المؤدية إلى التفرق، فضمير بينهم لهم خاصة ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا

﴿كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وعيد شديد بالعقاب، كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت، أي يجازيهم بما عملوه.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ التفات إلى خطاب الفريقين إثر بيان أحوالهما، ودعوةٌ لهم إلى الإيمان برسول الله ﷺ والقرآن الكريم، وإيرادهم بعنوان أهل الكتاب للمبالغة في التشنيع، فإن أهلية الكتاب من موجبات مراعاته وقد فعلوا من الكتم والتحريف ما فعلوا ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ الإضافة للتشريف، والإيذان بوجوب اتباعه ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ حال من رسولنا، أي قد جاءكم رسولنا حال كونه مبيناً لكم على التدريج، حسبما تقتضيه المصلحة ﴿كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي التوراة والإنجيل، كبعثة الرسول ﷺ وآية الرجم، ونحوهما، مع استمرارهم على الكتم والإخفاء، أي يبين لكم كثيراً من الذي تخفونه على الاستمرار، من الكتاب الذي أنتم المتمسكون به ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ مما تخفونه لا يخبر به إذ لم تدع إليه داعية دينية صيانة لكم مما فيه

افتضاحكم ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ عظيم، وهو نور لأنوار النبي المختار ﷺ وإلى هذا ذهب قتادة، واختاره الزجاج، وقال الجبائي: عني بالنور القرآن، لكشفه طرق الهدى واليقين، واقتصر على ذلك الزمخشري فالعطف في قوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ لتنزيل المغايرة بالعنوان، منزلة المغايرة بالذات، والمبينُ من بَانَ اللازم بمعنى ظهر، فمعناه الظاهر الإعجاز.

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي بما ذُكر ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي من كان يريد رضاء الله ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي طرق السلامة من العذاب، أو سبل الله تعالى وهي شريعته ﴿وَيُخْرِجُهُم﴾ الجمع باعتبار المعنى ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمات فنون الكفر والضلال ﴿إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾ إلى الإيمان والإسلام ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو أقرب الطرق المؤدي إلى الله سبحانه.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي لا غيره، وهم اليعقوبية القائلون بأنه تعالى قد يحلُّ في بدن إنسان أو في روحه، وأنه قد حل في بدن عيسى، ولا يزالون يقولون بألوهية المسيح، وبالتثليث ﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم وإظهاراً لبطلان قولهم ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ استفهام للإنكار، أي إن كان الأمر كما تزعمون، فمن يمنع عن قوة الله شيئاً ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؟ ومن حق من يكون إلَهاً أن لا يتعلق به قدرة غيره، فضلاً عن أن يعجز عن دفع شيء منها، فلما كان عجزه بيّناً، ظهر كونه بمعزل مما تقولون في حقه!! ومن الغريب أنهم قالوا إن شر نوع الإهلاك، وهو الصلب، نزل بالمسيح، ومع ذلك يعتقدون بألوهيته، والمراد بالإهلاك الإماتة مطلقاً، وإظهار المسيح في مقام الإضمار لبيان أن الكل تحت قهره وملكوته، وأن المسيح أسوة لسائر المخلوقات، في كونه عرضة للهلاك ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي له تعالى وحده، ملكُ

جميع الموجودات، والتصرف المطلق فيها، إيجاداً وإعداماً لا لأحد سواه ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ جملة مسوقة لبيان بعض أحكام الألوهية، على وجه يزيح ما اعتراهم من الشبهة في أمر المسيح، لولادته من غير أب، وخلق الطير، وإحياء الموتى وإبراء الأكمه، أي يخلق ما يشاء فتارة من غير أصل، كخلق السماوات والأرض، ومن غير جنسه كخلق آدم، أو من أنثى وحدها، كخلق عيسى، وقد يخلق بتوسط مخلوق آخر، كخلق الطير على يد عيسى معجزةً له، فيجب أن ينسب كله إلى الله تعالى، لا إلى من أجري ذلك على يده ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ﴾ حكاية لما صدر عن الفريقين من الدعوى الباطلة، روي عن ابن عباس أنه قال إن النبي ﷺ دعا جماعة من اليهود إلى دين الإسلام، وخوّفهم بعقاب الله تعالى، فقالوا: كيف تخوّفنا به، ونحن أبناء الله وأحباؤه؟ وقالت النصارى مثل ذلك قبلهم، فأنزل الله هذه الآية ردّاً على الفريقين ﴿وقالتِ اليهودُ والنَّصارى نحنُ أبناءُ اللهِ وأحبَّاؤُه﴾ وفيها تكذيبٌ لهم جميعاً، ومقصود الفريقين، أن لهم فضلاً عند الله تعالى، على سائر الخلق، فردَّ الله تعالى عليهم ذلكَ، وقال لرسول الله ﷺ ﴿قُلْ﴾ إلزاماً لهم ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ أي فإن صح ما زعمتم، فلم يعذبكم بذنوبكم؟ فإن من كان

بهذا المنصب، لا يفعل ما يوجب تعذيبه، وقد عذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ، وقد اعترفتم بأنه تعالى سيعذبكم في الآخرة وقلتم: ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ مدة عبادتكم العجل، هل رأيتم والداً يعذِّب ولده؟ وهل تطيب نفس محبٍّ أن يعذّب حبيبه في النار؟ وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ﴾ عطف على مقدر أي ليس الأمر كذلك بل أنتم بشر ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي بشر كائن من جنس خلق الله تعالى، من غير مزية لكم عليهم ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يغفر له من أولئك المخلوقين، وهم الذين آمنوا به تعالى وبرسله ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يعذبه منهم، وهم الذين كفروا بالله وبرسله مثلكم ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات، لا ينتمي إليه سبحانه شيء منها، إلاّ بالعبودية تحت ملكوته، يتصرف فيهم كيف يشاء، فأنى لهم ادعاء ما زعموا؟! ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ في الآخرة خاصة لا إلى غيره، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تكرير للخطاب بطريق الالتفات، واللطف في الدعوة ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ الشرائع والأحكام، الدينية، وإنما حذف اعتماداً على الظهور، إذ من المعلوم أن ما بيّنه الرسول هو الشرائع والأحكام، والجملة في موضع الحال أي جاءكم رسولنا مبيناً لكم ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي على حين فتورٍ من إرسال الرسل، وانقطاع زمان الوحي، والفترةُ ما بين الرسولين وهي انقطاع بعثهم، واختلف في مدتها بين نبينا ﷺ وعيسى عليه السلام، فقال قتادة: خمسمائة وستون سنة، وقال الكلبي: خمسمائة وأربعون ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ أي لئلا تقولوا معتذرين من تفريطكم، في أحكام الدين يوم القيامة ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ وقد انطمست آثار الشريعة السابقة، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ تفصح عن محذوف، والتقديرُ: لا تعتذروا فقد جاءكم وتنوين «بشير» و«نذير» للتفخيم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على إرسال الرسل تترى، وعلى الإرسال بعد الفترة.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا ۖ فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ۖ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية نقضهم للميثاق، ليُعلم أن مكابرة الحق، ومعاندة الرسول، خُلُقٌ مستمر من أخلاقهم، أي اذكر أيها الرسول للناس حين قال موسى لقومه، بعد أن أنقذهم من ظلم فرعون، ناصحاً لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي اذكروا إنعامه عليكم ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ ﴾ أي من أقربائكم، من أولاد يعقوب، والمراد بهم موسى، وهارون، ويوسف، وغيرهم ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ بعد أن كانوا عبيداً للقبط، فهي نعمة جليلة، نعمة الحرية والاستقلال، حتى صاروا كلهم كأنهم ملوك في السعة والترف ﴿ وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنِّ والسلوى، ونحوها والمراد بالعالمين عَالَمُو زمانهم.

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾ كرر النداء، اهتماماً بشأن الأمر،

ومبالغة في حثهم على الامتثال، والأرض المقدسة هي كما روي عن ابن عباس وابن زيد: «بيت المقدس» وقال الزجاج: دمشق وفلسطين ومعنى المقدسة: المطهرة أو المباركة، سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء، ومساكن المؤمنين ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي أنها تكون مسكناً لكم، إن آمنتم وأطعتم، لقوله تعالى بعدما عصوه ﴿قال فإنها محرمة عليهم﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾ الأدبار: جمع دُبُر أي: لا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة، فترجعوا خاسرين، وهذا يدل على اشتراط الكَتْب ﴿التي كتب الله لكم﴾ بالمجاهدة المترتبة على الإيمان والطاعة.

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ متغلّبين، لا تتأتّى مقاومتُهم، والجبَّارُ: فعَّال، هو الذي يجبر الناس على ما يريد، والجبار من أسماء الله الحسنى، فيه معنى العظمة والقدرة، مدحٌ للخالق، وذمٌّ للمخلوق، وما روي في بعض التفاسير من وصف هؤلاء الجبارين فأكثره من الخرافات الإسرائيلية، بثها اليهود منها ما حكي عن بعضهم أنه قال: استظلَّ سبعون رجلاً من قوم موسى في قحف[1] رجل من العمالقة، وحكي عن ابن أسلم قال: بلغني أنه رؤيت ضبع وأولادها، رابضة في فِجَاج عين رجل منهم، وأخبار عوج بن عُنُق، وغير ذلك، ولمَّا قرب موسى حدود الأرض المقدسة، وأمرهم بدخولها أبوا واعتذروا بضعفهم، وقوة أهل تلك البلاد، وقالوا: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ من غير جهد من قبلنا، فإنه لا طاقة لنا بإخراجهم منها ﴿فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ بسبب من الأسباب، التي لا تعلق لنا بها ﴿فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ حينئذ تلك البلاد، وكأنهم يريدون أن يخرجهم منها بقوة الخوارق، كما كان كل ما يحتاجون إليه، وجهلوا السنة الإلَهية.

---

(١) القِحْفُ: ما انفلق من جمجمة الإنسان، أي جلس سبعون في طرف من جمجمة أحدهم، وكلُّ هذه خرافات وأساطير، وإنما وصفوا بالجبروت لقوتهم وشدَّتهم وبسطة أجسامهم.

﴿ قَالَ رَجُلَانِ ﴾ روي عن ابن عباس أنهما: يوشع بن نون، وكالب ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ أي يخافون الله، ويتقونه في مخالفة أمره، وفيه تعريض بأن بعضهم لا يخافونه تعالى، بل يخافون العدوَّ ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ بالإيمان، والتثبيت، وربط الجأش، أي قالا مخاطبين لهم ومشجعين ﴿ ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ﴾ أي باب بلدهم، أي باغتوهم، وضاغطوهم في المضيق، وامنعوهم من الاستعداد، لئلا يجدوا في الحرب مجالاً ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ ﴾ أي باب بلدهم وهم فيه ﴿ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ من غير حاجة إلى القتال، فإنا قد رأيناهم، قلوبهم ضعيفة وإن كانت أجسامهم عظيمة، فلا تخشوهم واهجموا عليهم في المضايق، فإنهم لا يقدرون على الكرِّ والفر، وقيل: إنما علما ذلك، من سننه تعالى في نصرة رسله ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾ تعالى خاصة ﴿ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ به تعالى ومصدقين لوعده، فإن ذلك يوجب التوكل.

﴿ قَالُواْ ﴾ غير مبالين بهما مخاطبين لموسى عليه السلام إظهاراً لإصرارهم على القول الأول، وتصريحاً بمخالفتهم له ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ ﴾ أرض الجبابرة وهم في بلدهم ﴿ أَبَدًا ﴾ دهراً طويلاً ﴿ مَّا دَامُواْ فِيهَآ ﴾ أي في تلك الأرض ﴿ فَٱذْهَبْ ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فاذهب ﴿ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ ﴾ أي فقاتلاهم، وإنما قالوا ذلك استهزاءً برسولهم، وعدم مبالاة بأمره. ﴿ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ وأرادوا بذلك عدم التقدم، ولم يذكروا أخاه هارون ولا الرجلين، كأنهم لم يعبأُوا بقتالهم.

﴿ قَالَ ﴾ موسى لمّا رأى منهم ما رأى، على طريقة البثِّ والحزن ﴿ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ﴾ أي لا أملك إلا نفسي، وإن أخي لا يملك إلا نفسه، فليس قوله عليه السلام ردّاً لما أمر الله تعالى به، بل الشكوى إلى الله تعالى، مع رقة القلب التي بمثلها تستجلب الرحمة ﴿ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا ﴾ يريد نفسه وأخاه ﴿ وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أي الخارجين

عن طاعتك، المصرِّين على عصيانك، بأن تحكم لنا ما نستحقه، وعليهم ما يستحقونه كما هو المروي عن ابن عباس والضحاك.

﴿ قَالَ ﴾ الله عزَّ وجل ﴿ فَإِنَّهَا ﴾ أي الأرض المقدسة ﴿ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي لا يدخلونها ولا يملكونها، لأن دخولها مشروط بالإيمان والطاعة، وحيث نكثوا على أدبارهم حرموا، وانقلبوا خاسرين ﴿ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ فالمراد بتحريمها عليهم، أنه لا يدخلها أحدٌ منهم في هذه المدة، ﴿ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي يسيرون فيها متحيرين، يقال: تَاهَ يتيه تيهاً وتيهاناً ذهب متحيراً، وكان ذلك من خوارق العادات، إذ التحير في مثل تلك المسافة هذه المدة الطويلة، مما تحيله العادة، وأكثر المفسرين على أن موسى وهارون كانا معهم في التيه، لكنْ لم ينلهما من المشقة ما نالهم، وكان ذلك لهما روحاً وسلامة كالنار لإبراهيم ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي فلا تحزن عليهم، لأنهم أحقاء بذلك لفسقهم، وهذه القصة مفصلة في التوراة، وهي ناعيةٌ عليهم عصيانهم وطغيانهم.

﴿ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ ضمير عليهم يعود على بني إسرائيل كما هو الظاهر وقيل: هم هذه الأمة أي اتل يا رسول الله على قومك ﴿ نَبَأَ

﴿ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ﴾ هابيل عليه الرحمة، وقابيل عليه ما يستحقه، وكانا بإجماع المفسرين ابني آدم عليه السلام لصلبه، وكان من قصتهما ما أخرجه ابن جرير عن ابن مسعود أنه كان لا يولد لآدم إلاّ ولد وجارية، وكان يزوج غلام هذا البطن جارية بطن الآخر، وقد جعل افتراق البطون، بمنزلة افتراق النسب للضرورة، ولد له ابنان: هابيل وقابيل، وإن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل فأبى عليه، فأمره أبوه فأبى، وكانت توأمةُ قابيل أجمل، فحسده عليها أخوه وسخط، وأراد أن يحظى هو بها، فقال لهما آدم: قرِّبا قرباناً، فمن أيكما قُبِلَ تزوَّجها ففعلا، فنزلت نارٌ على قربان هابيل فأكلته، ولم تتعرض لقربان قابيل، فازداد قابيل حسداً وسخطاً، وفعل ما قصَّه علينا القرآن ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي تلاوة ملتبسةً بالصدق والصحة ﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا﴾ إذ قرَّب كلُّ واحد منهما قربانه ﴿فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا﴾ قربانه وهو هابيل ﴿وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ﴾ قربانه وهو قابيل، لأنه سخط حكم الله ﴿قَالَ﴾ أي قابيل ﴿لَأَقۡتُلَنَّكَۖ﴾ قال هابيل: ولمَ تقتلني؟ قال قابيل: لأن الله قبل قربانك، وتريد أن تنكح أختي ﴿قَالَ﴾ هابيل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ﴾ أي القربان ﴿مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ في ذلك بإخلاص النية فيه لله تعالى، ومراده من هذا الجواب أن يقول: إنك إنما أُتيت من قِبَل نفسك، لا من قبلي، فلمَ تقتلني؟ ولم يصرح ذلك حذراً من تهييج غضبه، وحملاً له على التقوى، والإقلاع عما نواه، ثم صرح بتقواه على وجه يستدعي سكون غيظه، لو كان له عقل حيث قال:

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ﴾ أي والله لئن باشرت قتلي حسبما أوعدتني به، وتحقَّق ذلك منك، ما أنا فاعل مثله لك في وقت من الأوقات، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قيل كان هابيل أقوى منه، ولكن تحرَّج عن قتله له، خوفاً من الله تعالى، وعن ابن عباس أن المعنى: لئن بسطتَ إليَّ يدك على سبيل الظلم والابتداء، ما أنا بباسط إليك يدي على وجه الظلم والابتداء، وفي قوله

تعالى: ﴿إني أخاف﴾ الخ. تعليل للامتناع، وإرشاد قابل إلى خشية الله، وتعريض بأن القاتل لا يخاف الله تعالى:

﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ ﴾ تعليل ثانٍ للامتناع عن المعارضة والمعنى: إني أريد بامتناعي عن التعرض لك، أن ترجع بإثم قتلي وبإثمك الذي لأجله لم يتقبل قربانك ﴿ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ ﴾ أي تكون بما حملت من الإثمين من أهل النار، لأنك حينئذٍ تكون ظالماً ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهذا من كلام هابيل على ما هو الظاهر أي ودخول النار جزاء كل ظالمٍ فاجر، عاصٍ لأوامر الله، وهو عقاب من لم يرض بحكم الله تعالى.

﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ ﴾ أي سهَّلتْ وزيَّنتْ له نفسه الشريرة قتل أخيه الشقيق، فقتله فخسر وشقي، والتصريحُ بأخوّته، لكمال تقبيح ما سوّلته نفسه ﴿ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ خسر الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فقد أسخط والديه، وبقي بلا أخ، وأما آخرته فأسخط ربه وصار مستحقاً للعقاب، أخرج البخاري عن ابن مسعود قال: قال ﷺ: «لا تُقتل نفسٌ ظلماً إلاَّ كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها، لأنه أول من سنَّ القتل»[1] وروي أنه لمَّا قتله تركه بالعراء، لا يدري ما يصنع به، حتى رأى طيراً يقتل طيراً، ثم يحفر حفرةً ويضعه فيها، ففعل بأخيه مثل ذلك.

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ ﴾ عادة الغراب دفن الأشياء، فجاء فدفن شيئاً، فتعلَّم منه والمتبادر أن الغراب أطال البحث، لأن المضارع يفيد الاستمرار، فلما رأى قابيل فعل الغراب زالت حيرته ﴿ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ﴾ كلمة جزع وتحسر، والألف فيها بدل من ياء المتكلم، والمعنى: يا ويلتي احضُري فهذا أوانك، والويل الهَلَكةُ تستعمل

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الديات ١٢/ ١٦٩ ومسلم في القسامة رقم ١٦٧٧ وفي رواية البخاري: «ليس من نفس تقتل ظلماً. .» الحديث.

عند وقوع الداهية ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ أي عن أن أكون ﴿مِثْلَ هَـٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ تعجب من عدم اهتدائه، إلى ما اهتدى إليه الغراب ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ على قتله، لما كابد فيه من التحيُّر في أمره وحمله، وعدم الظفر بما فعله من أجله، والعبْرة في الآية، أن الحسد كان منار أول جناية في البشر، ولا يزال هو الذي يفسد على الناس أمر اجتماعهم، وينغّص عليهم عيشهم.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ ذلك إشارة إلى عظم شأن القتل، وإفراط قبحه ﴿كَتَبْنَا﴾ أي قضينا ﴿عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ خصهم بالذكر لما أن الحسد كان منشأ لذلك الفساد، وهو غالب عليهم، ولأن التوراة أول كتاب نزل فيه تعظيم القتل، ومع ذلك كانوا أشد طغياناً فيه، حتى قتلوا الأنبياء عليهم السلام ﴿أَنَّهُ﴾ أي الشأن ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا﴾ واحدة من النفوس الإنسانية ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي فساد فيها يوجب هدر الدم، كالشرك، والارتداد، وقطع الطريق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ومناط التشبيه: اشتراطُ الفعلين في

هتك حرمة الدماء، وتجرُّوء الناس على القتل، واستجلاب غضب الله وعذابه ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي تسبَّب لبقاء نفس واحدة، إما بنهي قاتلها عن قتلها، أو استنقاذها من سائر أسباب الهَلكة بوجه من الوجوه، كالحرق، والغرق، والهدم ونحوها ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ وجه التشبيه ظاهر، والمقصود تهويل أمر القتل، وتفخيم شأن الإحياء، بتصوير كلٍ منهما بصورة لائقة به، في إيجاب الرهبة والرغبة، فالآية الكريمة تعلمنا ما يجب من وحدة البشر، ومن وظيفة كل منها على حياة الجميع ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إنما لم يقل ولقد أرسلنا، للتصريح بوصول الرسالة إليهم، أي وبالله لقد جاءتهم رسلنا بالآيات الواضحة، بتقرير ما كتبنا عليهم، تأكيداً بوجوب مراعاتها ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد ما ذُكر من التوضيح، وتأكيد الأمر ﴿فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ كثير منهم يسرفون في الأرض بالقتل ولا يبالون به، وذكر الأرض للإيذان بأن إسرافهم انتشر شره في الأرض حتى عمَّ وطمَّ.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي يحاربون أولياءهما وهم المسلمون، جعل محاربتهم محاربتهما تعظيماً لشأن المسلمين، والمراد به ههنا قطع الطريق، والمكابرة باللصوصية ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي يسعون مفسدين، نزلت في قُطَّاع الطريق وهذا قول أكثر الفقهاء، والفساد ضد الصلاح، فإزالة الأمن عن الأنفس، والأموال، ومعارضة تنفيذ الشريعة ونحوها، كلُّ ذلك إفسادٌ في الأرض، ولما كانت المحاربة والفساد على مراتب، شُرعت لكل مرتبة عقوبةٌ معينة فقال سبحانه ﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟﴾ أي حداً إن أفردوا القتل، ولو عفا الأولياء لا يلتفت إليه، لأنه حق الشرع ﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟﴾ مع القتل إذا جمعوا بين القتل والأخذ للمال، والصلبُ قبل القتل، بأن يصلبوا أحياء، والأولى أن يكون على الطريق في ممر الناس، ليكون ذلك زجراً للغير ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى، إن اقتصروا على أخذ المال، وفي ظاهر الرواية أن الإمام مخيَّر إن شاء اكتفى بالصلب، وإن شاء قطع أيديهم

وأرجلهم من خلاف ﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إن لم يفعلوا غير الإخافة، والسعي للفساد، والمراد من النفي عندنا هو الحبس، فإنه نفي عن وجه الأرض، وعند الشافعي من بلدٍ إلى بلد آخر، والعرب تستعمل النفي للسجن، قال بعض المسجونين:

خَرجْنَا من الدُّنْيَا ونحنُ من أهْلِهَا ... فلَسْنَا من الأَمْواتِ فيها ولا الأَحْيَا

إذا جَاءَنَا السَجَّانُ يوماً لِحَاجَةٍ ... عَجِبْنا وقلنَا جَاء هَذَا من الدُّنْيَا

قال مكحول: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من حبس من هذه الأمة، وقال أحبِسُه حتى أعلم منه التوبة، ولا أنفيه إلى بلد آخر فيؤذيهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما فُصِّل من الأحكام ﴿لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعظم ذنوبهم، واقتصر في الدنيا على الخزي، مع أن لهم عذاباً أيضاً، وفي الآخرة على العذاب مع أن لهم فيها خزياً أيضاً، لأن الخزي في الدنيا أعظم من عذابها، والعذاب في الآخرة أشد من خزيها، والآية أقوى دليل لمن يقول: إن الحدود لا تسقط العقوبة، والقائلون بالإسقاط يستدلون بقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «من ارتكب شيئاً فعوقب به كان كفارةً له»[1]، فإنه يقتضي سقوط الإثم عنه، وأن لا يعاقب في الآخرة، وهو مشكل مع هذه الآية، وأجاب النووي بأن الحدَّ يكفر به عنه حق الله تعالى، وأما حقوق العباد فلا، وههنا حقان، حقُّ الله، وحق العبد.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾ استثناء مخصوص بما هو حق الله تعالى، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٦٣٨ ولفظُه: عن عُبادة بن الصامت قال: «كنا عند النبي ﷺ فقال: أتبايعوني على ألاَّ تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا؟ وقرأ الآية: ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات﴾ فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له..» الحديث.

وأما ما هو من حقوق الأولياء من القصاص ونحوه، فإليهم ذلك، إن شاؤوا عفوْا وإن أحبوا استوفوا، وتقييد التوبة بالتقدم على القدرة، يدل على أنها بعد القدرة لا تسقط الحد، وإن أسقطت العذاب والآية في قطاع المسلمين، لأن توبة المشرك، تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ لما ذكر الله تعالى عظم القتل والفساد، أمر المؤمنين بأن يتقوه في كل ما يأتون وما يذرون، ومن جملتها القتل والفساد ﴿ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾ أي اطلبوا لأنفسكم ثوابه والزلفى منه ﴿ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ أي ما تتوسلون به من فعل الطاعات، وترك المعاصيّ والوسيلةُ ما يُتوسل ويتقرب به إلى الغير، توسَّل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل، وفي القرآن الكريم اسمٌ لكل ما يُتوصل به إلى مرضاة الله تعالى، من علمٍ، وعمل، وفي الحديث: «اللهمَّ آت محمداً الوسيلة» هي منزلة في الجنة، بيَّن تعالى بهذه الآية للمؤمنين، بأن مجامع التكليف محصورة في نوعين: أحدهما ترك المنهيات وإليه أشار بقوله: ﴿اتقوا الله﴾ وثانيهما فعل المأمورات وإليه أشار بقوله: ﴿وَابتَغُوا إِلَيهِ الوسِيلَةَ﴾ وهي القربة لا غير،

وحيث كان في كل منهما كلفة ومشقة، عقَّب الأمر بهما بقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ بمحاربة أعدائه البارزة والباطنة بما أمكنكم في طاعته تعالى، وبكف أنفسهم عن الأهواء الفاسدة ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بنيل النعيم المؤبد، والخلاص من كل نكد، وتقديمُ الوسيلة قبل طلب الحاجة، أقرب إلى الإجابة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كلام مبتدأ مسوق لتأكيد وجوب الامتثال بالأوامر السابقة ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم﴾ أي كل واحد منهم ﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من أصناف الأموال ﴿جَمِيعًا﴾ توكيد للموصول ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ وفائدة «معه» التصريح بفرض كونهما لهم بطريق المعية، لا بطريق التعاقب ﴿لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متلعق بالافتداء أي لو أن لهم كل ذلك، لدفع العذاب الواقع يومئذ ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ ذلك ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تصريح بالمقصود منه، وبيان لهوله ولشدته.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ الإرادة بمعنى التمني أي يتمنون ذلك ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ فإيثار الجملة الاسمية لبيان سوء حالهم، باستمرار عدم خروجهم منها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم، تصريح بعدم تناهي مدته، بعد بيان شدته، وهذه الآية كما ترى في حق الكفار، فلا تنافي القول بالشفاعة لعصاة المؤمنين في الخروج، كما لا يخفى على من له أدنى إيمان، روي عن جابر رضي الله عنه قال: «يخرج قومٌ من النار بالشفاعة»[1] قيل لجابر: يقول الله تعالى: ﴿وما هم بخارجين منها﴾ قال اتلُ أول الآية ﴿إن الذين كفروا﴾ فهي في الكفار لا في المؤمنين.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ شروع في بيان حكم السرقة الصغرى، بعد بيان أحكام السرقة الكبرى بقطع الطريق، والسَّرقةُ: أخذُ مال الغير خُفية، وصرَّح بالسارقة مع أن المعهود في الكتاب والسنة إدراج النساء في

---

(١) طرف من حديث طويل رواه الشيخان في باب الشفاعة للمؤمنين.

الأحكام الواردة، لمزيد الاعتناء بالبيان، والمبالغة في الزجر ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ أي أيمانهما كما يفصح عنه قراءة ابن مسعود «فاقطعوا أيمانهم»، واليد اسم لتمام الجارحة، والجمهورُ على أن المقطع هو الرسغ، فقد أخرج البغوي أنه ﷺ أتي بسارقٍ، فأمر بقطع يمينه منه، والمخاطب بقوله سبحانه: ﴿فاقطعوا﴾ ولاة الأمور كالسلطان، ومن أذن له في إقامة الحدود، وإنما توجب القطع إذا كان الأخذ من حِرْزٍ، والمأخوذُ يساوي عشرة دراهيم فما فوقها، وقُطعت اليدُ لأنها آلة السرقة، ولم تقطع آلة الزنا تفادياً عن قطع النسل، روى الشيخان عن عائشة قالت: قال ﷺ: «إنما هلك الذين من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإذا سرق فيهم الشريفُ تركوه، وايمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقتْ لقطعتُ يدها»[1] ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ أي بسبب كسبهما من السرقة ﴿نَكَٰلًا﴾ أي عقوبة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تعالى عبرة لغيرهما ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾[2] غالب على أمره، يمضيه كيف يشاء، من غير ند ينازعه ولا ضد يمانعه ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرائعه وفرائضه، لا يحكم إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿فَمَن تَابَ﴾ أي من السُّرَّاق إلى الله تعالى ﴿مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ الذي هو سرقته، والتصريح به لبيان عظم نعمته تعالى، بتذكير عظم جنايته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أمره بأن يرد مال السرقة، ويعزم على ترك المعاودة، ويستغفر ويتوب ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ أي يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة، وأما

---

١) الحديث رواه البخاري في الحدود ١٢/ ٧٦ ومسلم رقم ١٦٨٨ وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٣/ ٥٦١.

٢) حكاية لطيفة قال الأصمعي: كنت أقرأ القرآن، وبجانبي أعرابي جاء من البادية يسمع ما أقرأ، فقرأت هذه الآية: ﴿والسارق والسارقة...﴾ فقلتُ: ﴿والله غفور رحيم﴾ سهواً، فقال الأعرابي: كلامُ من هذا؟ فقلت: كلام الله عزَّ وجلَّ، قال: ليس هذا كلام الله، أعدْ ما قرأت، فأعدتها فتنبهت فقلت في ختامها: ﴿والله عزيز حكيم﴾ فقال: الآن أصبتَ، هذا كلام الله، فقلت له: كيف عرفت؟ فقال الأعرابي: عزَّ، فحكَمَ، فقطع، ولو غفر ورحم ما قَطع!!.

القطع فلا تسقطه التوبة، لأن فيه حق المسروق منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مبالغ فيهما، وفيه إشارة إلى أن قبول التوبة فضلٌ من الله تعالى.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد صالح للخطاب، والمراد به الاستشهاد على قدرته تعالى على التصرف الكلي من التعذيب والمغفرة حسبما تقتضيه مشيئته ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ قدم التعذيب لأن التعذيب للمصرِّ على السرقة، والمغفرة للتائب منها، فجاء هذا اللاحق على ترتيب السابق ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على ما ذكر من التعذيب والمغفرة.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ خوطب ﷺ بعنوان الرسالة للتشريف[1]، والإشعار بما يوجب عدم الحزن ﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ

(١) وفي هذا التشريف، تعليمٌ من الله وتأديب لعباده المؤمنين، أن يعظّموا رسول الله ﷺ عند=

﴿فِي ٱلْكُفْرِ﴾ إيثار كلمة «في» على كلمة «إلى» للإيماء إلى أنهم مستقرون في الكفر، لا يبرحونه، أي لا تحزن ولا تبال تهافتهم في الكفر بسرعة، والغرض منه مجرد التسلية على أبلغ وجه ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بيان للمسارعين في الكفر، والباء متعلقة بقالوا ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أي من المنافقين ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي هم سماعون، والضمير للفريقين أي مبالغون في سماع الكذب، وفي قبول ما يفتريه أحبارهم ورؤساؤهم من الكذب على الله سبحانه، وتحريف كتابه، فإن كونهم سماعين للكذب، مما يقتضي عدم المبالاة بهم، فهم عيون وجواسيس بين المسلمين، كالذين يفترون الكذب على الإسلام في هذا الزمان، ومعنى ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ يسمعون منك ليكذبوا عليك، وليحرّفوا ما سمعوا منك، بالزيادة والنقصان والتبديل ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي سماعون كلامه ﷺ ليكذبوا عليه، لأجل قوم آخرين، والمراد أنهم عيون عليه ﷺ لأولئك القوم ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي لم يقصدوك بالإتيان، بل قصدوا السماع للكذب فيه ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ وصفوا باستمرارهم على التحريف، بياناً لإفراطهم في العتو، والافتراء على الله تعالى، أي يميلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها ﴿يَقُولُونَ﴾ أي يقولون لأتباعهم السماعين لهم ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ﴾ من جهة الرسول ﷺ ﴿هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ واعملوا بموجبه فإنه الحق ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ بل أوتيم غيره ﴿فَٱحْذَرُواْ﴾ قبوله، روي عن ابن عمر أنه قال: «إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ،

= مخاطبته والتحدث معه، فيخاطبونه بلفظ فيه إجلالٌ وتوقير، كقولهم: يا رسول الله، يا نبيَّ الله، وألاَّ ينادوه باسمه العلم يا محمد، كما كان بعض الأعراب الجفاة يقفون عند باب منزله فيقولون: يا محمد اخرجْ إلينا، فنزل القرآن الكريم ناعياً عليهم هذا الصنيع: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ وجاء النهي لجميع الناس بالتحذير من ذلك: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ وحقاً إنه لتوجيه كريم لتعليمهم الأدب مع الرسول ﷺ.

فذكروا له أن امرأة منهم ورجلاً زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأنهما؟ فقالوا نفضحهم ويجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم، إنَّ فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما النبي ﷺ فرجما»[1] ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ أي ضلالته أو فضيحته ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فلن تستطيع له من الله شيئاً في دفعها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين من المنافقين واليهود ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ من رجس الكفر والضلالة، لانهماكهم فيها، وإصرارهم عليها بسبب اختيارهم، وقبح صنيعهم ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ أما المنافقون فخزيهم فضيحتهم، بظهور نفاقهم، وازدياد غمهم بمزيد انتشار الإسلام، وقوة شوكته، وأما خزي اليهود فالذلة والجزية وظهور كذبهم ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ مع الخزي الدنيوي ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يُقادر قدره، وهو الخلود في النار في الجملتين للمنافقين واليهود جميعاً، وتكريره لزيادة التقرير.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ ذكَرَه تأكيداً لما قبله وتمهيداً لما بعده ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ السحتُ: بسكون الحاء وضمها الحرام، نزلت في حكام اليهود، كانوا يرتشون ويقضون لمن رشاهم، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل لحم نبت من السُّحت، فالنَّارُ أولى به»[2] وأخرج عبد ابن حميد عن علي كرَّم الله وجهه، أنه سُئل عن السحت، فقال الرشاء ـ أي

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان، البخاري ١٢/١٤٨ في المحاربين، وفي تفسير سورة آل عمران ٨/ ٢٢٤ ومسلم في الحدود رقم ١٦٩ والترمذي رقم ١٤٣٦ في الحدود أيضاً.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٢١ ورواه الترمذي رقم ٦١٤ بلفظ «يا كعب بن عُجرة، إنه لا يربو لحم نَبَتَ من سُحتٍ إلا كانت النار أولى به».

الرشوة ـ فقيل له في الحكم؟ قال: «ذاك الكفر»[1] ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ خطاب للنبي ﷺ أي فإن جاؤوك متحاكمين إليك، فيما شجر بينهم من الخصومات ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾ وهذا تخيير له ﷺ فقيل: هذا في أمر خاص، هو ما ذكر من الزنا، وقيل هو عام في جميع الحكومات، ثم اختلفوا فمن قائل إنه ثابت، وهو قول عطاء وقتادة، وقائل إنه منسوخ، وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة، وأهل الذمة محمولون على أحكام الإسلام في البيوع، وسائر العقود، إلاَّ في بيع الخمر والخنزير، فإنهم يقرون عليه، ويمنعون من الزنا فإنهم نهوا عنه، ولا يرجمون، وتمام التفصيل في الفروع ﴿وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ تقديم حال الإعراض للمسارعة إلى بيان أنه لا ضرر فيه، حيث كان مظنة الضرر، لما أنهم إذا أعرض عنهم شقَّ ذلك عليهم، فتشتدُّ عداوتهم، فأمَّن الله تعالى رسوله بقوله: ﴿فَلَن يَضُرُّوكَ﴾ بسبب ذلك ﴿شَيۡـٔٗا﴾ من الضرر، فإن الله يحفظك من ضررهم ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ بالعدل الذي أُمرت به، وهو ما تضمنه القرآن، واشتملت عليه شريعة الإسلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ العادلين فيحفظهم من كل مكروه، ويعظم شأنهم، وفي الحديث الشريف: «إن المقسطين ـ أي العادلين ـ عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن ـ وكلتا يديه يمين ـ الذين يعدلون في حكمهم ـ أي فيما تقلدوا من خلافة، وإمارة أو قضاء ـ وأهليهم وما وَلُوا»[2] بالتخفيف من الولاية على يتيم، أو صدقة أو وقف، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، والبيهقي في سننه، وابن المنذر، وأخرج البخاري في كتاب الإجارة في ترجمة باب ٨/ ٤٥٣ قال ابن سيرين: كان يُقال للسحت: الرشوة في الحكم.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة رقم ١٨٢٧ باب فضيلة الإمام العادل، والنسائي في آداب القضاة ٨/ ٢٢١ وأحمد في المسند ٢/ ١٦٠.

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۖ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ۚ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ تعجيب من تحكيمهم من لا يؤمنون به، والحال أن الحكم منصوص عليه في الكتاب الذي هو عندهم، وتنبيه على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق، وإنما طلبوا به ما يكون أهون عليهم، وإن لم يكن حكم الله تعالى في زعمهم، والآية تقريع لليهود، بإظهار جهلهم وذلتهم ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ ﴾ عطف على يحكمونك، داخل في حكم التعجيب ﴿ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ من بعدما حكموك، أي ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم ﴿ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بك وبكتابهم.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان علو شأن التوراة، ﴿ فِيهَا هُدًى ﴾ يهدي إلى الحق ﴿ وَنُورٌ ﴾ يكشف ما اشتبه من الأحكام ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ﴾ يعني أنبياء بني إسرائيل، من لدن موسى إلى عيسى عليه السلام، ﴿ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾ انقادوا لحكم الله تعالى، أجريت على النبيين على سبيل المدح، وفيه رفع لشأن المسلمين، وتعريض باليهود، وأنهم بمعزلٍ من الانقياد والإسلام والاقتداء بدين الأنبياء ﴿ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾

وهو متعلق بيحكم ويدل على أن النبيِّين أنبياؤهم ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ أي العُبَّاد والعلماء قاله قتادة، وقال مجاهد: الربانيون العلماء والفقهاء وهم فوق الأحبار أي هم أيضاً يحكمون بها ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي بالذي استحفظوه من جهة النبيين، وهو التوراة حيث سألوهم أن يحفظوها من التغيير والتبديل، وضمير الجمع عائد إلى الربانيين والأحبار أي ويحكم الربانيون والأحبار أيضاً بالتوراة، بسبب ما حفظوه من كتاب الله، حسبما وصَّاهم به أنبياؤهم ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ أي رقباء يبيّنون ما يخفى منه للناس ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ﴾ خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم، وأما حكام المسلمين فيتناولهم النهي بطريق الدلالة كما روي عن ابن عباس، أي إذا كان الشأن كما ذكر يا أيها الأحبار، فلا تخشوا الناس كائناً من كان، واقتدوا في مراعاة أحكام التوراة وحفظها بمن قبلكم من النبيين، والربانيين، ولا تحرّفوا خشيةً من أحد ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ في الإخلال بحقوق مراعاتها ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى﴾ أي لا تستبدلوا بآياتي التي فيها بأن تتركوا العمل بها، وتأخذوا لأنفسكم ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الرشوة والجاه وسائر الحظوظ الدنيوية ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ كائناً من كان، دون المخاطبين خاصة، فإنهم مندرجون فيه اندراجاً أولياً، ومن لم يحكم بذلك مستهيناً به، منكراً له، كما يقتضيه ما فعلوه من تحريف آيات الله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لاستهانتهم به، وفي الآية أشد تحذير، حيث علَّق الحكم بالكفر، بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى، فكيف وقد انضم إليه الحكم بخلافه؟!.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي فرضنا على اليهود ﴿فِيهَآ﴾ أي في التوراة ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ أي تُقاد بها إذا قتلها بغير حق ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ تفقأ ﴿بِٱلْعَيْنِ﴾ إذا فقئت بغير حق ﴿وَٱلْأَنفَ﴾ يُجدع ﴿بِٱلْأَنفِ﴾ المقطوع بغير حق ﴿وَٱلْأُذُنَ﴾ تُقطع ﴿بِٱلْأُذُنِ﴾ المقطوعة ظلماً ﴿وَٱلسِّنَّ﴾ تقلع ﴿بِٱلسِّنِّ﴾ المقلوعة بغير حق ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي ذات قصاص إذا

كانت بحيث تعرف المساواة مثل الشفتين والذَّكرِ، والأنثيين، والقدمين، واليدين وغيرها، وما لا يمكن فيه القصاص من كسر في عظم أو جراحة يخاف منه التلف ففيه حكومة عدل ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾ من المستحقين ﴿بِهِۦ﴾ بالقصاص، أي فمن عفا عنه، والتعبير عنه بالتصدُّق، للمبالغة في الترغيب فيه ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ يكفّر الله به ذنوبه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ كائناً من كان ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من شرائع الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المتعدون لحدود الله تعالى، قال الضحاك: لم يجعل في التوراة دية في النفس، ولا في الجِرَاحِ، وإنما كان العفو أو القصاص، وهو الذي يقتضيه ظاهر الآية.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ شروع في بيان أحكام الإنجيل، أي أتبعناهم على آثارهم ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي أرسلنا عيسى عقيبهم ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي مصدّقاً لما تقدَّمه من التوراة، فإن ذلك من لازم الرسول ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ كما في التوراة ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي معترفاً بأحكامها وأنها من عند الله، والتكريرُ لزيادة التقرير ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ تخصيصُ المتقين بالذكر، لأنهم المنتفعون بهذه الأحكام.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ أمر مبتدأ لهم بأن يعملوا بما فيه، من الأمور والأحكام التي لم تنسخ، التي من جملتها دلائل رسالته ﷺ، وأما أحكامه المنسوخة، فليس الحكم بها حكماً بما أنزل الله تعالى، كما يزعم دعاة النصرانية بما يغالطون به عوام المسلمين ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ منكراً له، ومستهيناً به ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

المتمردون، والخارجون عن الإيمان[1]، والآية تدل على أن الإنجيل مشتملٌ على الأحكام، وأن اليهودية منسوخة ببعثة عيسى عليه السلام، وأنه كان مستقلاً بالشرع.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي الكتاب الكامل، وهو القرآن الكريم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي ملتبساً بالحق ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي مصدِّقاً للكتب السماوية التي سبقته ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ رقيباً على سائر الكتب، يحفظها عن التغيير ويشهد لها بالصحة ويقرر أصول شرائعها، ومن الغرائب أن البعض من دعاة النصارى، فَهِمَ من هيمنة القرآن، الشهادة بحفظ الإنجيل من التحريف، واللفظ لا يدل على هذا، على أن النص شاهد على التحريف ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم﴾ أي إذا كان شأن القرآن كما ذُكر، فاحكم بين أهل الكتابين ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ إليك فإنه مشتمل على جميع

---

(١) وصف تعالى من لم يحكم بما أنزل الله بأوصاف ثلاثة: «الكفر، والظلم، والفسق» وهذا غاية في التنبيه على عظم الجريمة، وخطورة الأمر، أن يوصف المعرض عن تحكيم شريعة الله، بأنه كافر، ظالم، فاسق، فيا خيبة حكام العرب والمسلمين!؟.

الأحكام الشرعية الباقية في الكتب الإلهية ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الزائغة كما حرَّفوا من أمر الرجم ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ بالانحراف عنه إلى ما يشتهون، والخطاب وإن كان للنبي ﷺ لكن المراد به غيره، لأن الاتباع غير متصور فيه ﷺ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ كلام مستأنف، لحمل أهل الكتاب على الانقياد لحكم القرآن الكريم، والمعنى: لكل أمة منكم، وضعنا شرعة ومنهاجاً خاصَّيْن بتلك الأمة، فالأمة التي من مبعث موسى إلى مبعث عيسى شرعتهم بالتوراة، ومن مبعث عيسى إلى مبعث النبي ﷺ شرعتهم الإنجيل، أما أنتم أيها الموجودون في هذا العصر، فشرعتكم القرآن الكريم، فآمنوا به، والشرعةُ: الشريعة يعني الطريقة، شبّه بها الدينُ، لأنه طريق إلى ما هو سبب الحياة الأبدية ﴿ومنهاجا﴾ أي طريقاً واضحاً في الدين، من نهج الأمر إذا وضح.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ جماعة متفقة على دين واحد، في جميع الأعصار، ومفعول المشيئة محذوف أي لو شاء الله أن يجعلكم أمة واحدة لجعلكم، بأن خلقكم على استعداد واحد، وملة واحدة، من غير اختلاف بينكم، في وقت من الأوقات، في شيء من الأحكام الدينية ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ أي ليعاملكم معاملة من يبتليكم ﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة المناسبة لأعصارها هل تعملون بها أم لا؟ وبهذا اتضح أن مدار عدم المشيئة ليس مجرد الابتلاء بل العمدة في ذلك من انطواء الاختلاف على ما فيه مصلحتهم معاشاً ومعاداً، كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي فسارعوا إلى ما هو خير لكم في الدارين، من العقائد الحقة، والأعمال الصالحة المندرجة في القرآن الكريم وابتدروها انتهازاً للفرصة، وحيازة لفضل السبق، فالسابقون السابقون أولئك المقربون ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ فيه وعدٌ ووعيدٌ للمبادرين والمقصِّرين، أي سترجعون إلى الله تعالى وتحشرون إلى دار الجزاء ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ بالجزاء الفاصل بين المحق والمبطل، بما لا يبقى لكم معه شك فيما كنتم فيه تختلفون في الدنيا.

﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ عطف على الكتاب كأنه قيل: وأنزلنا إليك الكتاب وقلنا احكم أي الأمر بالحكم لأن المنزل الأمر بالحكم لا الحكم ﴿ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ ﴾ رُوي عن ابنِ عباس رضي الله عنه أن أحبار يهود، قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد ﷺ لعلنا نفتنه عن دينه فقالوا يا محمد: قد عرفتَ أنَّا أحبار يهود، وأنَّا إن اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدقك!! فأبى ذلك رسول الله ﷺ فنزلت، الآية: ﴿واحذرهم أن يفتنوك﴾[1] ثم قال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾ أي أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله تعالى، وأرادوا غيره، ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ ﴾ أي بذنب إجرامهم، وإعراضهم، وإنما عبّر عنه بذلك، إيذاناً بأن لهم ذنوباً كثيرة، وهذا من جملتها ﴿ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ متمردون في الكفر، معتدون فيه، وفيه تسلية للنبي ﷺ والمراد من الناس العموم، وقيل اليهود خاصة.

﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ ﴾ إنكار وتعجيب من حالهم، وتوبيخ لهم أي أيتولون عن حكمك، فيبغون حكم الجاهلية؟ والمراد به متابعة الهوى والمداهنة في الأحكام، وتقديم المفعول للتخصيص، المفيد لتأكيد الإنكار والتعجيب، لأن التولي عن حكمه ﷺ منكر وعجيب، وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا ﴾ إنكار لأن يكون أحد حكمه أحسن من حكمه تعالى، أو مساوٍ له ﴿ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ عند قوم يتدبرون الأمور، ويتحققون الأشياء بأنظارهم، فيعلمون أنه لا أحسن حكماً من حكم الله سبحانه، ومن الجهالة أن نرى ونسمع من بعض المسلمين في هذا العصر، من يقول لا ننكر الدين، ولكنا لا نريد الشريعة، وهؤلاء هم أشد فساداً في دينهم وأخلاقهم، من أولئك الذين نزلت الآية فيهم، فإنهم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والبيهقي، وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٧٠.

يرغبون عن حكم الله إلى حكم غيره، لا يعرفون شرائع الله ومحسناته، فهم ينتقدون كثيراً منها، لعدم موافقتها لأهوائهم، وهم في ضلالٍ مبين!!.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ خطاب يعم كافة المؤمنين، ووصفهم بعنوان الإيمان لحملهم على الانزجار عما نُهوا عنه ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي لا يتخذ أحد منكم أحداً منهم ولياً ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ أي بعض كل فريق منهم أولياء بعض، متفقون على كلمة واحدة، وهي إجماع الكل على مضارتكم، بحيث يبغونكم الغوائل، فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة[1]؟ ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ أي من جملتهم، والآية محمولة على التشديد، والمبالغة في الزجر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار، أي لا يهديهم إلى الإيمان، بل يخلّيهم وشأنهم، فيقعون في الكفر والضلالة، وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم، تنبيهاً على أن توليهم ظلمٌ، لما أنه تعريضٌ لأنفسهم للعذاب الخالد، والنهي لأفراد

---

(١) رُوي عن أبي موسى، الأشعري أنه قال: قلتُ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن لي كاتباً نصرانياً، فقال: مالَكَ ـ قاتلك اللهُ ـ ألاَ تتخِّذُ حنفياً؟ ـ أي مسلماً ـ أما سمعتَ قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء..﴾ قلتُ: له دينُه، وليَ كتابتُه، فقال: لا أكرمُهم إذْ أهانهم الله!! قلت: لا يتمُّ أمر البصرة إلاَّ به، فقال: مات النصراني!! ـ يعني هبْ أنه مات ـ فماذا تصنع بعده!؟.

المسلمين دون جملتهم، لأنه ليس من أصول الدين، أن لا يحالف ويعاهد من يخالفهم فيه، كيف وقد كان ﷺ حالف يهود المدينة عقيب الهجرة؟ وقد قيَّد ابن جرير الولاية بكونها لأجل الدين فهذا هو الممنوع والمحرَّم.

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ نفاق كابن أبيٍّ وأضرابه، والخطابُ للرسول ﷺ أو لمن له أهلية للخطاب، وإنما وضع المظهر ليشير إلى أن ما ارتكبوه من التولي، بسبب ما في قلوبهم من مرض النفاق، ورخاوة العقل ﴿ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ أي في موالاتهم ومعاونتهم[1] والرؤيةُ بصريَّةٌ، وإنما قال «فيهم» مبالغةً في رغبتهم فيها، وتهالكهم عليها، وللدلالة على أنهم مستقرون في الموالاة ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي يقول بعضهم لبعض ﴿ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ الدائرة أصلها ما يحيط بالشيء، والمراد بها هنا مصائب الدهر، ودائرة السوء النوائب تنزل وتهلك جمعها الدوائر، أي يقولون تدور علينا دائرة، بأن ينقلب الأمر، وتكون الدولة للكفار على المسلمين، فنحتاج إليهم، قاله مجاهد وقتادة، وقد ردَّ الله عليهم عللهم الباطلة، وبشّر المؤمنين بقوله سبحانه ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ ﴾ فإنَّ «عسى» منه عزَّ وجلّ وعدٌ محتوم، والمراد بالفتح فتح مكة قاله الكلبي، وقال الضحاك: فتح قرى اليهود، وقال قتادة: هو القضاء بنصره ﷺ على من خالفه، وإعزاز الدين ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ بقطع شأفة اليهود، من القتل والإجلاء، أو الأمر بإظهار أسرار المنافقين ﴿ فَيُصْبِحُوا۟ ﴾ أولئك المنافقون المعللون بما ذكر ﴿ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ على ما أبطنوه من الكفر والشك، في أمر الرسول ﷺ وما أظهروه مما أشعر على نفاقهم، وتعليق الندامة بما يكتمونه من الموالاة، لما أنه هو الذي كان يحملهم على موالاة الكفرة.

---

(١) المراد أن المنافقين من أهل المدينة، يسارعون في مودة اليهود، ونصارى نجران، لأنهم كانوا أهل ثروة وغنى، فكانوا يخالطونهم من أجل منافعهم الخسيسة وهذه من علامات أهل النفاق، لأن حبَّهم للدنيا أعظم من حبِّهم للدين.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ هذا القول إنما يصدر عن المؤمنين، عند ظهور ندامة المنافقين، والمعنى: ويقول المؤمنون مخاطبين لليهود، مشيرين إلى المنافقين الذين كانوا يوالونهم ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾؟ أي يقول المؤمنون الصادقون بعضهم لبعض: أهؤلاء أقسموا لليهود إنهم لمعكم، فلما حلَّ باليهود ما حلَّ، أظهروا، ما يسرُّونه من الموالاة، ومعنى جَهْد الأيمان: أغلظُها ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ هذا من جملة القول، أو من قول الله تعالى، شهادةً عليهم بحبوط أعمالهم، وفيه معنى التعجب، كأنه قيل ما أحبط أعمالهم؟ وما أشقاهم في الدنيا والآخرة؟!.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ لما نهى الله تعالى عن موالاة اليهود والنصارى، وفصَّل مصير المنافقين، شرع في بيان حال المرتدين، والمراد من المرتدين، المرتدون عقيدة وعملاً كمانِعي الزكاة، روي أنه ارتد عن الإسلام في عهد رسول الله ﷺ بعض الناس، فنزلت الآية تذكِّر وتحذر ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ﴾ أي يريد بهم خيري الدنيا والآخرة ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ أي يريدون طاعته، ويحترزون عن معاصيه، والمراد بالقوم في

الآية، يعمُّ كلَّ قوم يوصفون بأوصاف المسلمين، الذين يحبونه تعالى، وينشرون كلمة الله بين الناس، سواءً كانوا من العرب أو العجم، ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هو كقوله تعالى: ﴿رحماء بينهم﴾ أي متواضعون لهم، والذِلُّ بالكسر: اللينُ، ضد الصعوبة واستعماله بعلى لتضمين معنى العطف والحُنوِّ ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي أشداء متغلبين عليهم كقوله تعالى: ﴿أشداء على الكفار﴾ ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفة أخرى مبينة للكيفية عزتهم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أي أنهم جامعون المجاهدة في سبيل الله، وبين التصلب في الدين، وفيه تعريض بالمنافقين، فإنهم كانوا إذا خرجوا في جيش المسلمين، خافوا لوم أوليائهم من اليهود[1] ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما وُصف به القوم ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ لطفه وإحسانه إليهم ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ كثير الفواضل، والألطاف ﴿عَلِيمٌ﴾ مبالغ العلم بجميع الأشياء، فيعطي الفضل والعزَّة لمن يشاء!.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لما نهى عن موالاة الكفرة، ذكر عقيبه من هو حقيق بها، وإنما قال: ﴿وليُّكم الله﴾ ولم يقل أولياؤكم للتنبيه على أن الولاية لله على الأصالة، ولرسوله وللمؤمنين على التَّبع ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ صفة للذين آمنوا لجريانه مجرى الاسم، أي الذين يحافظون على الصلاة، ويؤدُّون الزكاة لمستحقيها، فهم يؤدُّون حقَّ الله، وحقَّ عباده ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ أي خاشعون ومتواضعون لله تعالى في الصلاة، وإيتاء الزكاة، لا يريدون بذلك إلاَّ وجه الله تعالى[2].

---

(١) اللَّوم: العذلُ على أمرٍ من الأمور، وإذا كان الفعل مذموماً يقال لفاعله: لم فَعلتَ هذا الفعل القبيح، فهذا هو اللوم، وقد يلام الإنسان على فعلٍ حسن محبوب، قال الشاعر:

وإذَا الفَتَىٰ عرف الرشادَ لنفسِهِ ... هانَتْ عليهِ مَلامةُ العُذَّالِ

(٢) ظنّ بعضهم أن معنى قوله تعالى: ﴿وهم راكعون﴾ أنهم يؤدُّون الزكاة في حال ركوعهم، حتى زعم بعضهم أن عليَّ بن أبي طالب تصدَّق وهو راكع، وهذا خطأ =

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي ومن يتخذهم أولياء ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ الحزب، الطائفة من الناس جعلوا حزب الله تعظيماً لهم، كأنه قيل: ومن يتولهم فإنهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآية النهيَ العام عن موالاة جميع الكفار، ونبّه على العلّة، بأنَّ من هذا شأنهُ، جمع بالمعاداة، فكيف بالموالاة؟ ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ التعرض لعنوان إيتاء الكتاب، لبيان شناعتهم، لما أن إيتاء الكتاب وازع لهم عن الاستهزاء بالدين، المؤسس على الكتاب المصدِّق لكتابهم ﴿ وَٱلْكُفَّارَ ﴾ أي المشركين لتضاعف كفرهم ﴿ أَوْلِيَآءَ ﴾ في العون والنصرة ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في ذلك بترك موالاتهم، أو بترك المناهي على الإطلاق، فيدخل فيه ترك الموالاة ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ حقاً فإن قضية الإيمان توجب الاتقاء لا محالة.

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا ﴾ أي الصلاة، أو المناداة، وفيه دليل على أنِ الأذان مشروع للصلاة بالنص، لا بالمنام وحده، ومنام «عبد الله بن زيد» كان أول ما قدم ﷺ المدينة، وسورةُ المائدة من آخر القرآن نزولاً، حيث ورد بعد ثبوته، فيكون النص تقريراً له ﴿ هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ روى البيهقي في الدلائل عن ابن عباس، أنه قال: كان منادي رسول الله ﷺ إذا نادى بالصلاة، فقام المسلمون إليها، قالت اليهود: قد قاموا، لاقاموا، فإذا رأوهم ركعاً وسُجَّداً، استهزؤوا بهم، وضحكوا منهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ فإن السفه يؤدي إلى الجهل بالحق، والهزؤ به، والعقل يمنع منه، ولو كان لهم عقلٌ لما اجترؤوا على تلك العظيمة، وسمى تعالى الأذان مناداةً، لقول المؤذن فيه: حيَّ على الصلاة، حيّ على الفلاح.

= وفهم غريب لمعنى الآية، وإنما المراد أنهم خاشعون متواضعون لعظمة الله جلَّ وعلا، وانظر ما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/ ٧٤ في الردِّ على من زعم ذلك.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أمرٌ لرسول الله ﷺ بأن يخاطبهم، ويبين أنَّ الدين منزهٌ عما صدر عنهم من الاستهزاء، أي قل لأولئك الفجرة ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ ﴾ نقم الأمر كرهه، أي هل تنكرون وتعيبون منا ﴿ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ من القرآن المجيد ﴿ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ من التوراة والإنجيل المنزلين عليكم، وسائر الكتب الإلهية ﴿ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ أي متمردون خارجون عن دائرة الإيمان، فإن الكفر بالقرآن العظيم، مستلزمٌ للكفر بسائر الكتب الإلهية، ومعنى الآية: ما تنقمون منا ديننا لعلةٍ من العلل، إلاَّ لإيماننا بالله تعالى، وما أُنزل إلينا وما أنزل من قبلنا، ولأن أكثركم متمردون غير مؤمنين بشيء مما ذُكر، وقيل: ﴿أكثركم﴾ لإخراج المؤمنين منهم، فإن منهم من قد آمن، وحَسُن إيمانه.

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ ﴾ لما أُمر ﷺ بإلزامهم، ببيان أن مدار نقمتهم على الدين أولاً، هو اشتماله على كفرهم، أمر عقيبه بأن يوبخهم ببيان أن الحقيق بالنقم والعيب، ما هم عليه من الدين المحرَّف، أي هل أخبركم بما هو شرٌّ في الحقيقة مما تعتقدونه شراً؟ هو أنتم المفسدون المكذبون لرسل الله، عن ابن عباس قال: أتى النبيَّ ﷺ نفرٌ من اليهود، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، قال: أومِنُ بالله ﴿وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل، وإسحاق ويعقوب، والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى... -إلى قوله تعالى- ونحن له مسلمون﴾ فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا لا نؤمن بعيسى، ولا بمن آمن به، ثم قالوا: لا نعلم ديناً شراً من

دينكم، فأنزل الله الآية[1] ﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي جزاءً ثابتاً في حكمه تعالى، والمثوبة مختصة بالخير، كالعقوبة مختصة بالشر، فوُضعت ههنا موضعها على طريقة التهكم، كقول الشاعر: «تحيةُ بينهمْ ضربٌ وَجيعُ» ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، بتقدير مضاف، أي هو دين من لعنه الله ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ أي مسخ بعضهم قردة، وبعضهم خنازير، وهم اليهود أبعدهم الله من رحمته بكفرهم، وانهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات، قال ابن عباس: إن المسخين بالقردة والخنازير، كانا في أصحاب السبت، مُسخت شبانهم قردة، وشيوخهم خنازير ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ عطف على صلة «مَنْ» كأنه قيل: ومن عبد الطاغوت ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الموصوفون بتلك الفضائح ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي شرٌّ مصيراً ومآلاً في الآخرة، لأن مكانهم الجحيم، ولا مكان أشر منه ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وأكثر ضلالاً وبعداً عن الطريق المستقيم، وفيه دلالة على أنَّ دينهم شرٌّ محض، بعيد عن الحق، فمن هذا حاله، كيف يتجاسر على الاستهزاء بدين الإسلام ولكنهم اليهود اللعناء، لا يتورَّعون عن كل جريمة.؟

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ قال قتادة: نزلت في ناس من اليهود، كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ ويظهرون له الإيمان نفاقاً، وقيل: هم عامة المنافقين ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ أي يخرجون من عندك كما دخلوا، لا يؤثر فيهم ما سمعوا منك وكلمة «هم» للتأكيد في إضافة الكفر إليهم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ أي من الكفر، وفيه وعيد لهم، وإنما لم يقل سبحانه «وقد خرجوا» إفادة لتأكيد الكفر، دون لفظ الخروج، لأنه خلاف الظاهر، إذ كان الظاهر بعد تنور أبصارهم، برؤية مطلع شمس الرسالة، وتشنف أسماعهم بلآلىء درر النبوة، أن يرجعوا عما هم عليه من الغواية، فلما سمعوا قول النبي ﷺ وأنكروه، ازداد كفرهم وضلالهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ١٠/ ٤٥٢.

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ ﴾ أي من أولئك اليهود، والخطاب لسيد الرسل ﷺ أو لكل من يصلح للخطاب ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ ﴾ المراد بالإثم الكذب ﴿ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ الظلم ومجاوزة الحد في الطغيان، والكلامُ مسوقٌ لوصفهم بسوء الأعمال، بعد وصفهم بسوء الاعتقاد ﴿ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ أي الحرام مطلقاً، وقال الحسن: الرشوة في الحكم، خصَّه بالذكر مع اندراجه في الإثم، للمبالغة في التقبيح ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي لبئس شيئاً يعملونه من تلك الأفعال الشنيعة.

﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ ﴾ «لولا» هنا للتحضيض أي الحث على فعل الشيء المحبوب فهي بمعنى «هلاَّ» أي هلاَّ يزجرهم علماؤهم وأحبارهم ﴿ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ أي عن فعل المعاصي والآثام، وأكلهم المال الحرام!؟ قال أبو حيان في تفسيره البحر المحيط: هذا التحضيضُ يتضمن توبيخهم على السكوت وترك النهي ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ وهذا أبلغ مما تقدم من الفعل والعمل، لما تقرَّر في اللغة، أن الفعل ما صدر عن الإنسان مطلقاً، فإن كان عن قصدٍ سُمّي عملاً، ثم إن حصل بمزاولةٍ وتكرر، حتى رسَخَ وصارَ مَلكةً له، سُمّي صُنعاً وصَنْعة، فلذا كان الصنع أبلغ، لاقتضائه الرسوخ، ففي الآية إشارة إلى أن ترك النهي أقبح من الارتكاب.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ قال ابن عباس: إن الله تعالى كان قد بسط على اليهود، حتى كانوا من أكثر الناس مالاً، فلما عصوا الله سبحانه، وكفروا برسول الله ﷺ، كفَّ عنهم ما بسط عليهم، فعند ذلك قال: «فنحاص بن عازواء» يد الله مغلولة، وحيث لم ينكر الآخرون نسبت إلى الكل، وأرادوا بذلك لعنهم الله تعالى، أنه ممسكٌ فإن كلاً من غَلِّ اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾[2] وهذا من أشنع جرائم اليهود، حيث اتهموا الله بالبخل لعنهم الله ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم بالبخل المذموم، والفقر والنكد، وما زالوا أبخل الأمم، فلا يكاد أحد منهم يبذل شيئاً يسيراً، إلا إذا كان يرى أن له من ورائه ربحاً كثيراً، أو يُراد بغلّ الأيدي حقيقة، يُغلون أسارى في الدنيا، ويقيدون بالسلاسل إلى النار في الآخرة ﴿وَلُعِنُوا﴾ أي أُبعدوا عن رحمة الله تعالى ﴿بِمَا قَالُوا﴾ أي بسبب ما قالوا ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ عطف على مقدر، أي كلا ليس كذلك، بل هو في غاية ما يكون من الجود والسخاء ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي هو مختار في إنفاقه، يوسّع تارةً، ويضيّق أخرى، على حسب مشيئته، ومقتضى حكمته، وقد اقتضت الحكمة بسبب ما فيهم من شؤم المعاصي، أن يضيّق عليهم، كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ الآية ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ من اليهود، وهم علماؤهم ورؤساؤهم، أو المقيمون على الكفر منهم مطلقاً ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي يزدادون طغياناً وكفراً مما يسمعون من القرآن، كما يزداد المريض مرضاً من تناول الغذاء الصالح، والزيادة من حيث الكمّ والكثرة،

---

(١) العرب تقول: فلان مغلول اليد إذا كان بخيلاً لا ينفق، وفلانٌ يده مبسوطة إذا كان سخياً كريماً، فالآية كناية عن البخل والجود، والقرآن نزل بأساليب العرب المعروفة عندهم التي يتخاطبون بها.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٢٩.

إذ كلما نزلت آية كفروا بها، فيزداد طغيانهم وكفرهم ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ﴾ أي بين اليهود، وقيل: بين اليهود والنصارى، لأنه قد جرى ذكرهم في قوله سبحانه: ﴿لا تتخذوا اليهود والنصارى﴾ ولشمول قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يا أهل الكتاب﴾ للفريقين ﴿وَالْبَغْضَاءَ﴾ فلا تتوافق قلوبهم، ولا تتطابق آراؤهم، **قال أبو حيان**: لا يزال اليهود والنصارى متعادين، وفي ذلك إخبار بالغيب، فإنه لم يجتمع لحرب المسلمين جيش يهود ونصارى، منذ سلَّ الإسلامُ السيف ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فلا تتوافق قلوبهم ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أي كلما أرادوا محاربة الرسول ﷺ، ورتبوا مباديها، ردَّهم الله تعالى بتفرق آرائهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، فإيقاد النار كنايةٌ عن إرادة الحرب، وقد كانت العرب إذا تواعدت للقتال جعلوا علامتهم إيقاد نار على جبل أو ربوة، ويسمونها نار الحرب، والمراد من إيقاد النار، إظهار الكيد بالمؤمنين، وإطفائها صرف ذلك عن المؤمنين، وقيل هو أعم من ذلك، أي كلما أرادوا حرب أحد غلبوا، فإنهم لما خالفوا حكم التوراة، سلَّط الله عليهم بختنصَّر المجوسي، ثم أفسدوا فسلَّط عليهم قطرس الرومي، ثم أفسدوا فسلط عليهم الفرس، ثم أفسدوا فسلَّط الله عليهم المسلمين ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي يسعون سعي فساد، فيما يأتونه من إيقاد الحرب، وتهييج الفتن، ولم يكن سعيهم للإصلاح والشؤون الاجتماعية، بل كانوا يسعون للفساد بين الناس، كانوا يحرِّضون المشركين على الرسول ﷺ، فكانوا سبباً للغزوات الكثيرة، كما أنهم يغرون الدول بعضهم على بعض في هذا الزمان، نعوذ بالله من شرورهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون!! ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ بل يبغضهم، ولذلك أطفأ الله ثائرة فسادهم.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟﴾ أي اليهود والنصارى والمراد بهم معاصرو رسول الله ﷺ أي لو أنهم ـ مع ما صدر عنهم من فنون الجنايات ـ آمنوا برسول الله ﷺ وبما جاء به ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ أي ما حرَّم الله تعالى ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ التي اقترفوها وإن كانت في غاية العظم ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ﴾ مع ذلك ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ تكفير السيئات في مقابلة الإيمان، وإدخال الجنة في مقابلة التقوى، وتكرير اللام لتأكيد الوعد، وفيه تنبيه على عظم معاصيهم، وكثرة ذنوبهم، وأن الإسلام يَجُبُّ[1] ما قبله.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ بمراعاة ما فيها من الأحكام، التي من جملتها شواهد النبوة ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ من القرآن الكريم، وإيراده بهذا العنوان، للإيذان بوجوب إيمانهم به لنزوله عليهم أيضاً، لا كما يزعمون من اختصاصه بالعرب، وفي إضافة الرب إلى ضميرهم، مزيد لطفٍ بهم في الدعوة إلى الإقامة ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي لأوسع الله عليهم أرزاقهم، بأن يفيض عليهم بركات السماء والأرض، وفي هاتين الشرطيتين من حثهم على الإيمان والتقوى، لنيل سعادة الدارين، وتنبيههم على أن ما أصابهم من الضنك والضيق، إنما هو من جناياتهم، لا لقصورٍ في فيض الفيَّاض جل وعلا، ودلت الآية على أن الإيمان والتقوى، سببٌ لسعة الرزق، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أهل القرىٰ آمنُوا واتَّقوْا لَفَتَحْنَا عليهمْ بَرَكَاتٍ من السَّمَاءِ والأرْض﴾[2] ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أي عادلة، غير غالية ولا مقصرة، وهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي وكثير منهم أشرار فجار لتحريفهم الحق، والإعراض عنه، وهم الأجلاف المتعصبون.

---

(١) في اللغة جبَّ يَجُبُّ جَبّاً وجِبَاباً أي يقطع، فالإسلام يقطع ويهدم ما قبله من الكفر والذنوب، وانظر المعجم الوسيط مادة جبب.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٩٦.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ نداء تشريف ﴿ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ إلى الثقلين كافة، بلِّغْهم جميع ما أُنزل إليك من الأحكام، وما يتعلق بها كائناً ما كان ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي مالك أمورك ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ ﴾ ما أُمرت به من التبليغ كافة ﴿ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ أي فما بلغت شيئاً من رسالته، لأن كتمان بعضها يضيع ما أُدِّيَ منها، كترك بعض أركان الصلاة، واستدل بالآية على أنه ﷺ لم يكتم شيئاً من الوحي، وأما ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: «حفظتُ من رسول الله ﷺ وعائين: فأما أحدهما فبثثتُه، وأما الآخر فلو بثثتُه قُطع مني هذا البلعوم»[1] أي مجرى الطعام، فإنما هو في غير الأحكام الشرعية، كأمور المنافقين وأسمائهم، وبعض الأمور الغيبيّة التي لو كشفها لجرَّتْ إلى فتنة، وجميع ما عند النبي ﷺ من الأسرار الإلهية، والأحكام الشرعية، قد اشتمل عليه القرآن الكريم، قال الله سبحانه: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ وقال: ﴿ما فرَّطْنَا في الكتاب من شيء﴾ وفي الحديث الشريف: «أما إنها ستكون فتنة، قيل: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله تعالى، فيه نبأ ما قبلكم، وخَبَرُ ما بعدكم، وحُكْمُ ما

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم ١/٢١٦ قال البخاري: البلعومُ مجرى الطعام.

بينكم...»[1] الحديث. ومن زعم أن هناك أسراراً خارجة عن كتاب الله تعالى فقد أعظم الفرية، وجاء بالضلال بلا مرية، وزعمت الشيعة أن في الآية: ﴿مما أُنزل إليك﴾ خلافة علي فقد رَوَوْا بأسانيدهم عن أبي جعفر أن الله تعالى أوحى إلى نبيه ﷺ أن يستخلف علياً، فكان يخاف أن يشقَّ ذلك على جماعة من أصحابه، فأنزل الله هذه الآية، ومن وقف على ما يرويه الشيعةُ فيها، وكان له أدنى خبرة، رأى العَجَب العُجاب، وتحقق أن أقوال القوم كصرير باب، أو كطنين ذباب، ومما يبعد دعوى الشيعة قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإن الناس فيه يراد بهم الكفار، بدليل ختم الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإنه في موضع التعليل لعصمته ﷺ روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان رسولُ الله ﷺ يحرس ليلاً، حتى نزلت هذه الآية، فأخرج رأسه من القُبَّة فقال: يا أيها الناس انصرفوا، فقد عصمني الله تعالى»[2].

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مخاطباً للفريقين: اليهود، والنصارى ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي دينٍ يُعتدُّ به، ويليق بأن يُسمَّى شيئاً، وفي هذا التعبير من التحقير ما لا غاية وراءه ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أي تراعوهما وتحافظوا على ما فيهما من الأمور، التي من جملتها دلائل رسول الله ﷺ وأما مراعاة أحكامهما المنسوخة، فليست مرادة، لانتهاء وقت العمل بهما بنسخهما ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي القرآن المجيد، بالإيمان به، فإن إقامة الجميع لا تتأتى بغير ذلك، وفي هذا بيان بأن أهل الكتاب لم يقيموا دين الله تعالى، لا وسائله، ولا مقاصده على الوجه الذي كان عليه سلفهم قبل مجيء خاتم الأنبياء ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي وليزيدن هذا القرآن المنزل عليك يا محمد الكثير منهم الغلوَّ

---

(١) أخرجه الترمذي في فضل القرآن رقم ٢٩٠٨ وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٨/ ٤٦٢.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٠٤٦.

في التكذيب، والإصرار على جحود نبوتك ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي فلا تحزن لطغيانهم، فإن غائلته عائدة عليهم، ووضعُ المظهر موضع المضمر، لتسجيل الكفر عليهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي مَنْ آمن من هؤلاء المذكورين، إيماناً صادقاً خالصاً، لا يشوبه شك ولا ارتياب بالله واليوم الآخر، وعمل لآخرته، فإنه ينال جزاءه بدخول الجنة، من غير أن يصيبه خوف ولا فزع.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بيانٌ لبعض آخر من جناياتهم ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ﴾ ذوي عدد كثير، ليبينوا لهم أمر دينهم ويتعهدوهم بالعظة والتذكير ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي بما لا تحبه أنفسهم، ولا تميل إليه من الشرائع، ومشاق التكاليف، عصوه ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ لأنهم كانوا يعتقدون أن النَّسْخَ ممتنع على شرع موسى، والواجب عليهم في كل رسول جاء بشرع آخر تكذيبه وقتله، فلذلك كذَّبوا بعضهم، وقتلوا بعضهم، وإنما أوثر صيغة المضارع، لاستحضار صورتها الهائلة للتعجيب، وللتنبيه على أن ذلك ديدنهم المستمر.

﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٌ﴾ أي حسب بنو إسرائيل أن لا يصيبهم بلاء وعذاب، بقتل الأنبياء عليهم السلام وتكذيبهم ﴿فَعَمُواْ﴾ أي تمادوا في فنون الغي والفساد، وعموا عن الدين، بعدما هداهم الرسل، وبيّنوا لهم مناهجه ﴿وَصَمُّواْ﴾ عن استماع الحق الذي ألقوه إليهم ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ حين تابوا ورجعوا عما كانوا عليه من الفساد، بعدما كانوا ببابل دهراً طويلاً، تحت قهر بختنصر، أسارى في غاية الذل والمهانة، فوجه الله ملكاً من ملوك فارس إلى بيت المقدس فعمره، وردَّ من بقي من بني إسرائيل إلى وطنهم، فاستقروا وكثروا، وكانوا كأحسن ما كانوا عليه من الحال، وذلك قوله تعالى: ﴿ثم رددنا لكم الكرَّةَ عليهم﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ وهو إشارة إلى المرة الآخرة، من مرَّتيْ إفسادهم، وذلك في سلسلة جرائمهم الشنيعة المتلاحقة، فقد أوغلوا في الضلال، واجترؤوا على قتل زكريا، ويحيى، ثم قصدوا قتل عيسى ﴿كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ﴾ أي كثيرون منهم ضالون، وإنما قال سبحانه: ﴿كثير منهم﴾ لأن بعضاً منهم لم يكونوا كذلك ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ بما عملوا، وهذا وعيد لهم وتهديد.

﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ شروع في تفصيل قبائح النصارى، وهم فرقة تسمى الملكانية يقولون: إن الله اسمٌ يجمع أماً، وابناً، وروح القدس، فصار كلهم إلَهاً واحداً، فعيسى هو الله، واليعقوبية منهم يقولون: إن الله سبحانه حلَّ في ذات عيسى، واتحد بذاته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ﴾ أي وقد قال المسيح مخاطباً لهم ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾ أي إني عبدٌ مربوب مثلكم، فاعبدوا خالقي وخالقكم، ولا يزال أمره هذا محفوظاً عندهم ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ أي شيئاً من عبادته سبحانه كنسبة علم الغيب وإحياء الموتى بالذات إلى عيسى ﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ لأنها دار الموحّدين ﴿وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧.

فإنها معدة للمشركين ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي ما لهم من أحد ينصرهم، بإنقاذهم من النار.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ معنى قولهم: ﴿ثالث ثلاثة﴾ أي أحد هذه الأعداد، لا الثالث خاصة، فإنهم يقولون: إن الإلٰهية مشتركة بين الله سبحانه، وعيسى، ومريم، ويؤكده قوله تعالى: ﴿أأنت قلتَ للناس اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله﴾؟[1] وهو المتبادر من قوله تعالى ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي وما في الوجود ذاتٌ واجب مستحق للعبادة إلاَّ إله موصوف بالوحدانية، مستحق للعبادة، متعال عن قبول الشركة، ولا ترى أظهر بطلاناً من مقالة النصارى، فإن الثلاثة لا تكون واحداً، والواحد لا يكون ثلاثة آلهة، بوجه من الوجوه، وهل يجوز أن يتحد موجودان، بحيث لا يبقى بينهما الإثنينية؟ هذا شيء

(١) سورة المائدة، آية: ١١٦.

مستحيل، ممتنع بالشرع والعقل[1] ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي إن لم يرجعوا عمَّا هم عليه إلى التوحيد والإيمان ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي بالله ليمسن الذين بقوا منهم على الكفر ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي نوع شديد الألم من العذاب.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾؟ الاستفهام لإنكار الواقع واستبعاده، وتعجيبٌ من إصرارهم على الكفر، أي ألا ينتهون عن تلك العقائد الزائفة، فلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه عما نسبوه إليه من الاتحاد والحلول؟ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيغفر لهم ويمنحهم من فضله إن تابوا، وهي مؤكدة للإنكار والتعجيب من إصرارهم على الكفر.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ استئناف مسوقٌ لتحقيق الحق، وبيان حقيقة حاله، وحال أمه عليه السلام، أي ليس المسيح ابن مريم إلا رسول كسائر الرسل قبله، وليس فيه من صفات الألوهية شيء ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي ما هو إلا رسول كالرسل قبله، خصه الله بآيات، كما خصهم بها، فإن أحيا الموتى على يده فقد أحيا العصا في يد موسى، وإن خلقه من غير أب، فقد خلق آدم من غير أب وأم، وكل ذلك من جنابه عزَّ وجل، وإنما موسى وعيسى مظاهر لشؤونه وأفعاله تعالى، فأين لكم وصفه بالألوهية؟ ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ أي وما أمه أيضاً، إلا كسائر النساء، اللواتي لازَمْنَ الصِّدق، فكانت عفيفةً أمينةً شريفة، وليست زوجة لله كما يزعم النصارى، واستدل بالآية من ذهب إلى عدم نبوة مريم، لأنه تعالى أشار

---

(١) الأقانيم الثلاثة «الآب، الابن، روح القُدُس» على زعم النصارى وهي مختلفة كل الاختلاف، فالآب غير الابن، والابن غير روح القدس، فكيف تكون الثلاثة واحداً؟ وإذا قلنا: هذه طاولة، وهذا كرسي، وهذا سرير، فهل يقبل عاقل أن تقول له: إن هذه الثلاثة واحد؟ هل هي ثلاث كراسي؟ هل هي ثلاث طاولات؟ لا، هل هي ثلاثة أسَرة؟ لا، كيف تكون إذاً الثلاثة واحداً؟ ولذلك يقولون: لا يجتمع عقلٌ ونصرانية، إذ كيف يكون الآب والابن وروح القدس ثلاثتها واحداً؟.

في معرض بيان أشرف خصائصها «الصدّيقية» ولو كان لها مرتبة «النبوة» لذكرها ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ أي كان عيسى وأمه كسائر البشر، يأكلان الطعام، ويحدثان الحدث، فكيف يكونان إلَهين؟[1] ثم عجَّب تعالى ممن يدعي الربوبية لهما، مع أمثال هذه الأدلة الظاهرة فقال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أي انظر كيف نبين لهم الآيات الباهرة ببطلان ما يقولون عليهما ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يُصرفون عن الحق، وثم لتفاوت ما بين العَجَبَيْن، أي أن بياننا عَجَبٌ، وإعراضُهم عنها أعجبُ، والإفك: الكذبُ، وأصله الصرف والقلبُ، ويقال للكذب إفك، لأنه صرفٌ عن الحق، قيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؟ أي أتعبدون من دون الله من لا يقدر لكم على النفع والضر؟ يعني عيسى عليه السلام، فإنه عاجز عن دفع الضر عن نفسه فضلاً عن غيره؟ فلا يملك مثل ما يفعل الله تعالى بالخلق، من البلايا والمصائب، وما ينفع به من الصحة والسعة، وقيل: المراد بـ«ما» كلّ ما يعبد من دون الله، كالأصنام وغيرها، غلَّبَ ما لا يعقل على ما يعقل ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي سميع لأقوالكم، عليم بضمائركم، وهو متضمن للوعيد لمن عَبَد غير الله تعالى.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيه له إلى فريقي أهل الكتاب، بعد إبطال مسلك كل منهما، للمبالغة في زجرهم عما سلكوه واختار الطبري كونه خطاباً للنصارى خاصة، لأن الكلام معهم ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ غلا في الدين غُلواً تصلَّب وشدَّد حتى جاوز الحد، أي لا تجاوزوا الحدَّ وهو نهي للنصارى عن رفع عيسى عليه السلام عن رتبة

---

(١) في الآية الكريمة إشارة بارعة رائعة إلى بطلان ألوهية عيسى، فإن من يأكل الطعام، ويشرب الشراب، يحتاج إلى التغوط والتبول، وإخراج الفضلات من بطنه، فكيف يكون عيسى إلهاً، وهو يأكل ويشرب، ويحدث الحدث، ثم هو قد خرج من فرج امرأة؟ أليس هذا كافياً على بطلان دعوى الألوهية؟.

الرسالة إلى ما يقولون، إنه إله، ولليهود عن وضعهم له عن الرتبة العلية، إلى ما يقولون إنه ابن زنى ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي لا تغلوا غلواً باطلاً، وذكرهم بعنوان: «أهل الكتاب» للإيماء إلى أن كتابهم ينهاهم عن الغلوّ في دينهم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾ يعني أسلافهم وأئمتهم، الذين ضلُّوا قبل مبعث الرسول ﷺ ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ أي أناساً كثيرين ممن شايعهم على بدعهم وضلالهم، أو إضلالاً كثيراً ﴿وَضَلُّواْ﴾ عند بعثة النبي ﷺ ووضوح محجة الحق ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن قصد السبيل الذي هو الإسلام، بعد مبعثه ﷺ كذّبوه وبغوا عليه.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي لعن الله عز وجل، وبناء الفعل للمفعول، للجري على سنن الكبرياء ﴿مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي لعنهم الله في الزبور، والإنجيل على لسانهما ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي اللعن المذكور، والطرد من رحمة الله ﴿بِمَا عَصَواْ﴾ بسبب عصيانهم ﴿وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ وبسبب اعتدائهم المستمر.

﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ مؤذن باستمرار الاعتداء منهم، وعدم التناهي عن تعاطي المنكرات، أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر والمراد بالمنكر، قيل صيد السمك يوم السبت، وقيل أخذ الرشوة،

وقيل: أكل الربا، والأولى العموم، وهو أن يراد به نوع المنكر ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ تقبيح لسوء أعمالهم، وتعجيبٌ منه بالتأكيد القسَمي، أي لبئس شيئاً فعلوه في الدنيا، وفي هذه الآية زجر شديد، لمن يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فقد روى حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله تعالى أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم تَدْعونه فلا يستجيب لكم»[1]. والأحاديث في هذا الباب كثيرة، فيا حسرة على المسلمين، في إعراضهم عن هذا الواجب الكبير.

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي من أهل الكتاب ككعب بن أشرف وأضرابه ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المراد من ﴿الذين كفروا﴾ مشركو مكة، روي أن جماعة من اليهود، خرجوا إلى مكة، ليتفقوا مع مشركيها على محاربة النبي ﷺ والمؤمنين، فلم يتمَّ لهم ذلك ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي لبئس شيئاً قدَّموه ليَرِدُوا عليه يوم القيامة ﴿أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ هو المخصوص بالذم، أي موجب سخط الله وغضبه عليهم ﴿وَفِي الْعَذَابِ﴾ عذاب جهنم ﴿هُمْ خَالِدُونَ﴾ أبد الآبدين أي لبئس ذلك لأنه أكسبهم السخطَ والخلود.

﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ أي الذين يتولون المشركين من أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ أي لو كان هؤلاء اليهود يؤمنون بالله تعالى إيماناً صحيحاً وبنبينا ﷺ وبالقرآن الكريم ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ أي ما اتَّخذوا المشركين ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ فإن الإيمان الصادق وازعٌ عن توليهم قطعاً ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي خارجون من دينهم، متمردون في نفاقهم.

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن رقم ٢١٧٠ ورواه الطبراني في الأوسط بلفظ «لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليسلطنَّ الله عليكم شراركم، ثم يدعو خيارُكم فلا يُستجاب لهم» وانظر مجمع الزوائد ٧/ ٢٦٦.

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد، يخبر أن اليهود أشد الناس عداوةً للمسلمين، لتضاعف كفرهم، وانهماكهم في اتباع الهوى وركونهم إلى التقليد، وتكذيبهم لأنبياء الله ومعاداتهم، وقد قيل: إن من مذهب اليهود، أنه يجب عليهم إيصال الشر، إلى من يخالفهم في الدين، بأيّ طريق كان، وفي تقديم اليهود على المشركين، إشعار بتقدمهم عليهم في العداوة، فالوثنيون واليهود أشد الطوائف عداوة للمؤمنين ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ المراد منهم ـ ما روي عن ابن عباس ـ: النجاشي وأصحابه ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي كونهم أقرب مودة للذين آمنوا، للين جانبهم، ورقة قلوبهم ﴿ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن قبول الحق إذا فهموه، ولا يتكبرون كاليهود، والقسيس صيغة مبالغة من تقسس الشيء إذا تتبعه، سموا بذلك لمبالغتهم في تتبُّع العلم، والرهبان جمع راهب وهو العابد، وأصله من الرهبة أي الخوف، والتنكير في «رُهباناً» لإفادة الكثرة، وفي الآية دليل على أن التواضع،

والإقبال على العلم، والإعراض عن الشهوات، محمودة أينما كانت، لا سيَّما ممن ينتسب إلى العلم والدين!.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ وهذا بيان لرقة قلوبهم، وشدة خشيتهم، والفيض: أن يمتلىء الإناء ويسيل من شدة الامتلاء، جُعِلتْ أعينُهم من فَرطِ البكاء، كأنها تفيض أنفسها، قال ابن عباس يريد النجاشي وأصحابه، قال لجعفر بن أبي طالب: هل في كتابكم ذكر لمريم؟ قال: فيه سورة مريم، فقرأها، فبكى النجاشي وأصحابه، والمراد بالنصارى «نصارى الحبشة» الذين سمعوا القرآن فبكوا وآمنوا، لا النصارى عامة، بدليل قوله بعده ﴿يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ وليس كل النصارى كذلك[1] ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ أي وذلك من أجل ما عرفوه من الحق، الذي بيَّنه لهم القرآن الكريم ﴿يَقُولُونَ﴾ كأنه قيل ماذا يقولون؟ فأجيب بقوله ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أي صدّقنا بنبيك وبكتابك ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي من الذين شهدوا بأن الإسلام حقٌّ، أو من الشاهدين من أمته، الذين هم شهداء الله على الأمم يوم القيامة كما في قوله تعالى: ﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ هذا من تتمة قولهم، قالوه تحقيقاً لإيمانهم، ومعنى الإيمان بالله: الإيمان بوحدانيته سبحانه، على الوجه الذي جاءت به الشريعة المحمدية ﴿وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ يعني القرآن الكريم ﴿وَنَطۡمَعُ﴾

---

(١) هذا هو الحقُّ وهو الصحيح، أن الآية نزلت في نصارى الحبشة ـ زمن النجاشي ـ فإنهم لمَّا سمعوا القرآن، بكوْا حتى اخضلَّتْ لحاهم بالدموع، وأعلنوا إيمانهم هم والنجاشي، بالقرآن والرسول، بدليل قوله تعالى بعده ﴿ترىٰ أعينَهُمْ تَفِيضُ من الدَّمع ممَّا عَرَفُوا من الحقِّ، يقولون ربنا آمنَّا فاكتُبْنَا مع الشَّاهِدينَ﴾ وليست في النصارى عامة كما نرى من حال الصرب المجرمين، فالنصارى إخوة اليهود في المكر والخبث والعداء، فتنبَّه رعاك الله.

ونحن نطمع ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ الجنة ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ أي ونحن نطمع في صحبة الصالحين في الجنة.

﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ﴾ أي فجزاهم الله تعالى ﴿بِمَا قَالُوا﴾ أي بقولهم الذي عبَّروا عنه عن الإيمان وإخلاصهم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا النظر والعمل، واعتادوا الإحسان في الأمور كلها من أهل الإيمان، أقيم الظاهرُ مقام ضميرهم مدحاً لهم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ بيان لحال المكذبين، وذكرهم في معرض المصدقين بها جمعاً بين الترغيب والترهيب، وبغيرها تتبيَّن الأشياءُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي ما طاب ولذّ منه، أي لا تمنعوها أنفسكم وتحرّموا الطيبات بنحو يمين، روي أن رسول الله ﷺ جلس يوماً، فذكَّر الناس، ووصف القيامة، واجتمع عشرة من الصحابة في بيت «عثمان بن مظعون» واتفقوا على أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ولا يأكلوا اللحم، ولا يقربوا النساء، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنزلت الآية، فقال لهم الرسول ﷺ: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أمَا واللهِ إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي

وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1] أي ليس من المتقين، فلا ينافي هذا النهي أن الله تعالى مدح النصارى بالرهبانية، فربَّ ممدوح بالنسبة إلى قوم، مذمومٍ بالنسبة إلى آخرين، وقوله تعالى ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ تأكيد للنهي السابق، والاعتداء يكون كذلك، بتجاوز الحلال إلى الحرام، أو بالإسراف في تناول الطيبات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ في موضع التعليل لما قبله، أي يبغضهم ويمقتهم لتجاوزهم حدود الله.

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أي وكلوا مما أحلَّ اللهُ لكم وطاب مما رزقكم الله، والآية دليل على شمول الرزق للحلال والحرام، إذ لو لم يقع الرزق على الحرام، لم يكن لذكر الحلال فائدة ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن الإيمان به تعالى، يوجب المبالغة في التقوى، والانتهاء عما نهى عنه، وأكلُ اللذائذ لا ينافي التقوى، فقد أكل النبي ﷺ ثريد اللحم، ومَدَحه، وكان يحبُّ الحلوى.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ عن ابن عباس أنه قال لما نزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات..﴾ الآية في القوم الذين حرَّموا على أنفسهم اللحم، والنساء، قالوا يا رسول الله: كيف نصنع بأيماننا؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية[2] ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ أي بما عقدتموه ووثقتموه بالقصد والنية، إذا حنِثْتُم فيه، وحذف للعلم به ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ فكفارةُ نكثه، التي من شأنها أن تكفر الخطيئة، واستدل بظاهره على جواز التكفير قبل الحنث، وعندنا لا يجوز لقوله ﷺ: «إذا حلفتَ على يمينٍ،

---

(١) أصل الحديث في الصحيحين من رواية أنس بن مالك. ولفظ الحديث كما في رواية البخاري «جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها، قالوا: فأين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه!!» الحديث.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان ١٠/ ٥١٤.

ورأيتَ غيرها خيراً، فأتِ الذي هو خير، ثم ليكفر عن يمينه»[1] ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ أي فكفارته أن يطعم الحانثُ عشرة مساكين ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي من أقصده في النوع والمقدار، وهو لكل مسكين عندنا نصف صاع من بر، أو صاع من شعير، وعن ابن عمر أن الأوسط الخبز والتمر، والخبز والزيت، والخبز والسمن، والأفضل الخبز واللحم ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ وهو ثوب يستر عامة بدنه، فلم يُجْزِ السراويل فقط ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي إعتاق إنسان كيفما كان، مؤمنة كانت أو كافرة لإطلاق النص، وشرط الشافعي الإيمان حملاً للمطلق على المقيَّد، ومعنى «أو» التخيير في إيجاب إحدىٰ الكفارات الثلاث، وتفاوتها قدراً وثواباً، لا ينافي التخيير المفوض، وبدأ سبحانه بالإطعام تسهيلاً على العباد ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ شيئاً من الأمور المذكورة ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ متتابعة، واعتبر عدم الوجدان وقت الأداء، ويشترط استمرار العجز إلى الفراغ من الصوم، واختلف في الواجد، روي عن قتادة قال: إذا كان عنده خمسون درهماً فهو ممن يجد، ويجب عليه الإطعام، وعن الشافعي وأحمد ومالك، من عنده فضل عن قوته وقوت من تلزمه يومَهُ وليلته، وعن الإمام أبي حنيفة إذا لم يكن عنده نصاب فهو غير واجد[2] ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي مضى ذكره ﴿كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ فبروا فيها ولا تحنثوا إذا لم يكن الحنث خيراً، أو ولا تحلفوا أصلاً ولا تبذلوها لكل أمر، قال تعالى: ﴿ولا تجعلوا الله عُرضة لأيمانكم﴾ أو بأن تكفروها إذا حنثتم، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كذلك البيان البديع ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أحكام شريعته ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته فيما يعلمكم أو نعمة الواجب شكرها.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/ ٣٣٠ ومسلم في الأيمان رقم ١٦٥٤ والنسائي ٧/ ٢٥ في الأيمان أيضاً.

(٢) النصاب يراد به نصاب الزكاة، فكل من ملك/ ٢٠٠/ مائتي درهم فضة فهذا لا يجزئه الصوم لأنه غني ويجب عليه أن يُطعم أو يُعتق.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ ﴾ وهي الأصنام المنصوبة للعبادة، وفرق بعضهم بأن الأنصاب حجارة لم تصوَّر، كانوا ينصبونها للعبادة ويذبحون عندها، والأصنام ما صُوِّر، وعُبد من دون الله عز وجل ﴿ وَٱلْأَزْلَٰمُ ﴾ وهي الأقداح التي كانوا يستقسمون بها كاستشارة لآلهتهما المزعومة ﴿ رِجْسٌ ﴾ قذر تعاف عنه العقول، وعن الزجاج: الرجس كل ما استقذر من عمل قبيح ﴿ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ لأنه مسبّب عن تسويله وتزيينه، أي رجس كائن من عمله ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ أي الرجس، وابتعدوا عن هذه القذارات الحسية والمعنوية ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لكي تفلحوا بالاجتناب عنه، لقد أكد الله تحريم الخمر والميسر، في هذه الآية الكريمة، بفنون التأكيد، حيث صُدِّرت الجملة بإنما، وقرنا بالأنصاب والأزلام، وسُمّيا رجساً من عمل الشيطان، تنبيهاً على أن تعاطيها شرٌّ بَحْتٌ، وأمر بالاجتناب عنها لا عَنْ عينهما، وجعل ذلك سبباً يُرجى منه الفلاح، فيكون ارتكابها خيبة وضلالاً، ثم قرر ذلك ببيان ما فيها من المفاسد الدنيوية والدينية.

فقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾ وتخصيصهما بإعادة الذكر، للتنبيه على أن المقصود بيان حالهما، وذكر الأصنام والأزلام، للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة

والشر، وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ تخصيص الصلاة بالإفراد، مع دخولها في الذكر للتعظيم، وللإشعار بأن الصادَّ عنها كالصادّ عن الإيمان، لما أنها عماد الدين، ثم أعيد الحثُّ على الانتهاء بصيغة الاستفهام، فقال سبحانه ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ إيذاناً بأن الأمر في الزجر والتحذير، وكشف ما فيهما من المفاسد والشرور، قد بلغ الغاية، وأن الأعذار قد انقطعت، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون؟ أم أنتم على ما كنتم عليه؟ ولذا قال عمر رضي الله عنه: انتهينا ربنا انتهينا!.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي أطيعوهما في جميع ما أمرا به، ونهيا عنه ﴿وَٱحْذَرُواْ﴾ مخالفتهما في ذلك، أمروا بالحذر لأنه يدعوهم إلى اتقاء كل سيئة، وعمل كل حسنة ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن الامتثال بما أُمرتم به ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي إنما عليه تبليغكم وقد فعل ذلك، وقامت عليكم الحجة، وانتهت الأعذار، فلم يبق بعد ذلك إلا العقاب، الذي ينتهي بكم إلى الدمار.

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ﴾ أي إثم وحرج ﴿فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ أي تناولوا أكلاً أو شرباً، عن البراء بن عازب قال: مات ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ وهم يشربون الخمر، فلما نزل تحريم الخمر، قال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ كيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها؟ فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَى الذِينَ امَنُوا﴾[1] الآية. والطَّعْمُ كالطعام، يُستعمل في الأكل والشرب ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾ أي ليس عليهم جناح، فيما تناولوه من المأكول والمشروب، إذا اتقوا أن يكون في ذلك شيء من المحرمات ﴿وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي استمروا على الإيمان، والأعمال الصالحة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ أي اتقوا ما حرَّم عليهم بعد ذلك ﴿وَّءَامَنُواْ﴾ بتحريمه واستمروا على الإيمان ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ أي ما حرم عليهم بعد ذلك

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم/ ٣٠٥١/ وقال: حديث حسن صحيح.

﴿ وَأَحْسَنُوا ﴾ أي عملوا الأعمال الحسنة، والمعنى إذا اتقوا المحرمات واستمروا على ما هم عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، فلا جناح عليهم فيما طعموه من المطاعم والمشارب، إذ ليس فيها شيء محرم عند طعمه ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فلا يؤاخذهم بشيء من ذلك ومن صار محسناً، صار لله محبوباً.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خطاب فيه تكريم لأهل الإيمان ﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ ﴾ أي والله ليعاملنكم معاملة من يختبركم ليعرف أحوالكم ﴿ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ ﴾ أي من صيد البر، مأكولاً أو غير مأكول ﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ ابتلاهم الله تعالى بالصيد، وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم، بحيث يتمكنون من صيدها، أخذاً بأيديهم، وطعناً برماحهم وهم محرمون، والتقليل ﴿بشيء﴾ للتنبيه على أنه ليس من العظائم، التي تدحض الأقدام، كالابتلاء ببذل الأنفس والأموال، فمن لم يثبت عنده كيف يثبت عند ما هو أشد منه؟ فنهاهم الله تعالى عنها ابتلاءً، كما ابتلى بني إسرائيل بصيد البحر، لكنَّ الله عزَّ وجل عصم المسلمين فلم يصطادوا شيئاً منها، وعن ابن عباس ومجاهد: أن الذي تناله الأيدي فراخ الطير وصغار الوحش، والذي تناله

الرماح الكبارُ من الصيد ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي ليتميز الخائف من عقابه الأخروي، وهو غائب مترقب، لقوة إيمانه فلا يتعرض للصيد، ممن لا يخافه كذلك لضعف إيمانه فيقدم عليه ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ذلك النهي، فصاد في حالة الإحرام ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدارين، لأن من لا يملك زمام نفسه، ولا يراعي حكم الله تعالى، في أمثال هذه البلايا الهيّنة، لا يكاد يراعيه في عظائم الأمور.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ والتصريح للنهي مع كونه معلوماً من قوله تعالى ﴿غير محلّي الصيد﴾ لتأكيد الحرمة، وترتيب ما تعقبه عليه، و﴿حُرُمٌ﴾ جمع حرام، وهو المحرم، أي لا تقتلوه وأنتم محرمون، وذكر القتل دون الذبح ونحوه، للإيذان بأن الصيد وإن ذبح، في حكم الميتة، وإليه ذهب أبو حنيفة وأحمد ومالك، وهو القول الجديد للشافعي، وفي القديم لا يكون في حكم الميتة، يحل أكله للغير ويحرم على المحرم ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ أي ذاكراً لإحرامه، عالماً بحرمة قتل ما يقتله ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ أي فعليه جزاء مماثل لما قتله، والمراد به عند الشيخين: المِثلُ باعتبار القيمة، يُقوَّم الصيدُ حيثُ صِيد فإن بلغت قيمته قيمة هدي، يُخيَّر الجاني أن يشتري بها ما قيمته قيمة الصيد، فيهديه إلى الحرم، وبين أن يشتري بها طعاماً، فيعطي كل مسكين نصف صاع من بُرٍّ، أو صاعاً من غيره، وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوماً ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ بيان للهدي المشترى بالقيمة، وعند مالك والشافعي: هو المِثْلُ باعتبار الخلقة، لأن الله أوجب المثل مقيداً بالنعم، ولنا أن النص أوجب المثل، والمثل المطلق هو المِثْلُ صورة ومعنى، وهو غير مراد هنا بالإجماع، فبقي أن يراد المثل معنى وهو القيمة، ومما يرشد إلى أن المراد بالمثل هو القيمة، قولُه عزَّ وجلَّ ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ﴾ أي بمثل ما قتل ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي حكمان عدلان من المسلمين، لأن التقويم هو الذي يحتاج إلى النظر والاجتهاد، دون المماثلة في الصورة، التي يستوي في معرفتها كل أحد من

الناس، والمراد من ﴿ذوا عدل﴾ التعدد، ويراد منه اثنان، لأنه أقل مراتبه، يروى أنه جاء أعرابي إلى أبي بكر فقال: أني أصبت من الصيد كذا، فسأل أبو بكر «أبيَّ بن كعب» فقال الأعرابي أتيتك أسألك وأنت تسأل غيرك؟ فقال أبو بكر: قال الله تعالى: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ فشاورت صاحبي، فإذا اتفقنا على شيء أمرناك به ﴿هَدْيًا﴾ أي يحكم به في حال الهدي ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ معنى بلوغه الكعبة أن يذبح في الحرم ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ إشارة إلى الطعام كأنه قيل: فعليه جزاء مماثل للمقتول من النعم، أو طعام مساكين، أو صيام أيام بعددهم، فحينئذ يجزىء، لكون المماثلة وصفاً لازماً للجزاء، ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي فعليه جزاء ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي من قتل الصيد قبل التحريم ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى قتل الصيد بعد النهي ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ أي فإن الله ينتقم منه في الآخرة، لأنه انتهك محارم الله، وأما الكفارة فإذا تكرر من المحرم قتل الصيد، تكرر عليه الجزاء، وعن ابن عباس يعزَّر بالضرب ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يغالب ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ شديد فينتقم ممن يتعدى حدوده، ويصر على معاصيه.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أيها المحرمون ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ أي ما يصاد في المياه كلها، بحراً كان أو نهراً وهو ما يعيش في الماء، مأكولاً أو غير مأكول ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ أي ما يُطعم من صيده، والمعنى: أحل لكم التعرض لجميع ما يُصاد في المياه، والانتفاع به، وأكل ما يؤكل وهو السمك، وقيل المراد بصيد البحر: ما صيد، وبطعامه ما قذفه البحر ميتاً ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ تمتيعاً لكم للمقيمين منكم ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي المسافرين يتزودونه قديداً ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ﴾ وهو ما يفرخ فيه، وإن كان يعيش في الماء كطير الماء ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي محرمين، وظاهره يوجب حرمة ما صاده الحلال على المحرم، وإن لم يكن له مدخل فيه، وهو قول عمر، وابن عباس، وجماعة من السلف، وعن أبي هريرة وسعيد بن جبير أنه يحل له ما صاده الحلال، إذا لم يشر إليه، ولم يدل عليه، وهذا مذهب أبي حنيفة لأن

الخطاب للمحرمين دون غيرهم، واستدل بما روي عن أبي قتادة قال: «كنت يوماً جالساً مع رجال من أصحاب النبي ﷺ والقوم محرمون، وأنا غيرمحرم، فأبصروا حماراً وحشياً، فقمتُ إلى الفرس فشددت على الحمار فعقرتُه، ثم جئت به، فوقعوا فيه يأكلون، ثم إنهم شكُّوا في أكلهم إياه، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال لهم: «هل منكم أحد أمره أن يحمل عليها، أو أشار إليها؟ قالوا: لا، قال: كلوا ما بقي من لحمها»[1]. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ لا إلى غيره، فيجازيكم على أعمالكم، وهو وعيد وتهديد.

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٩٧ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٨ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٩٩ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠٠﴾.

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ﴾ أي صيَّرها ﴿ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ سمي البيت الحرام، لأن الله تعالى حرَّمه، وعظَّمه، وشرَّفه، وحرَّم أن يُصاد فيه، وأن يُعضد شجره، وأراد بالبيت الحرام جميع الحرم، فإنَّ الحرم كما أنه سببٌ لأمن الوحش، فكذلك هو لحصول الخيرات ﴿قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ أي سبب انتعاشهم، في أمر معاشهم، يلوذ به الخائف، ويأمن فيه الضعيف، ويربح فيه التجار، ويتوجه إليه الحجاج والعمار ﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ الذي يؤدى فيه

(١) أخرجه البخاري في الحج ٤/ ٢٢ باب إذا رأى المحرمون صيداً، ومسلم في الحج أيضاً رقم ١١٩٦ باب تحريم الصيد للمحرم، ومالك في الموطأ ١/ ٣٥٠.

الحج، أي وجعل الشهر الحرام ﴿وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ أيضاً قياماً لهم، والمراد بالقلائد: البدن خصت بالذكر، لأن الثواب فيها أكثر، وبهاء الحج بها أظهر، والهدي الذي يُهدى للحرم من الأنعام ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي شرع ذلك ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإن تشريع هذه الشرائع، المستتبعة لدفع المضار الدينية والدنيوية، من أوضح الدلائل على حكمة الشارع، وعدم خروج شيء عن علمه المحيط ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم مصالح العباد، وما فيه خيرهم وسعادتهم.

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وعيد لمن انتهك محارمه أو أصرَّ على ذلك ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وعد بالمغفرة والرحمة، لمن حافظ على مراعاة حرماته تعالى، وأقلع عن الانتهاك.

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي ليس على الرسول إلا تبليغ الرسالة، وقد بلَّغ ما وجب عليه، فأيُّ عذر لكم بعد هذا؟ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي لا يخفى عليه تعالى شيء من أحوالكم وأعمالكم، فيؤاخذكم بذلك.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ أي الرديءُ والجيد من كل شيء، فهو حكم عام، في نفي المساواة عند الله تعالى بين النوعين، في الأشخاص، والأعمال، والأموال، قُصد به الترغيب في جيد كلٍّ منها، والتحذير عن رديئها ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ أي وإن سرك أيها الناظر كثرة الخبيث، فإن العبرة بالرداءة والجودة، دون القلة والكثرة، فإن المحمود القليل، خير من المذموم الكثير، وهوَ مثَلٌ ضربه الله تعالى للتمييز بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والحلال والحرام، ولهذا قال تعالى ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي فاتقوه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ راجين أن تبلغوا الفوز بالثواب العظيم، والنعيم المقيم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ ﴾ أي لا تسألوا عن أمور لا حاجة لكم إليها، فمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس قد فُرض عليكم الحجُّ فحجُّوا، فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً، ثم قال ﷺ: ذروني ما تركتكم، ولو قلتُ: نعم، لوجبَتْ ولَمَا استطعتم، وإنما أهلك من كان قبلكم، كثرةُ سؤالهم، واختلافُهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»[1]. و«أشياء» هو اسم جمع وقيل هو جمع شيء ﴿ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ أي إن ظهرت لكم وكلفتم بها، شقت عليكم وساءتكم لأنكم لا تحتملونها ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ والمراد ما يشقُّ عليهم من التكاليف الصعبة، التي لا يطيقون حملها، والأسرار الخفية التي يفتضحون بظهورها، ونحو ذلك مما لا خير فيه، لإيجابها عليهم بطريق التشديد،

---

(١) أخرجه مسلم في الحج رقم ١٣٣٧ باب فرض الحج مرة في العمر، والنسائي ٥/ ١١٠ باب وجوب الحج.

لإساءتهم الأدب، أي لا تكثروا مساءلة رسول الله ﷺ عما لا يعنيكم، إن أفتاكم بها حسبما أوحي إليه لم تطيقوا حملها، والآية تتضمن النهي عن الفضول، وما لا يعني، وفي الحديث الشريف: «إن أعظم المسلمين جُرماً، من سأل عن شيء، لم يُحرَّم على الناس، فحُرِّم من أجل مسألته»[1] والسؤال على نوعين: **أحدهما**: ما كان على وجه التبيين فيما يحتاج إليه من أمر الدين، وذلك جائز، كسؤال عمر وغيره في الخمر، **وثانيهما**: ما كان على وجه التعنُّت، نظيرُه سؤال الأقرع حين وجب الحج، والمراد بما في الحديث هذا النوع[2] ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ عما سلف من مسألتكم، فلا تعودوا إلى مثلها، وفيه حثهم على الجد في الانتهاء عنها يعني كره الله لكم السؤال عنها فلم يؤاخذكم بها ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بعقوبة ما يفرط منكم، ويعفو عن كثير.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ أي سألوا مثل هذه المسألة المحظورة، المستحقَّة للوبال، والضمير في موقع المفعول به، وذلك من باب الحذف والإيصال، والمراد سأل عنها، واختلف في تعيين القوم فعن ابن عباس هم قوم عيسى سألوه إنزال المائدة، وقيل هم قوم موسى سألوه بيان البقرة ﴿مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا﴾ أي صاروا بسببها ﴿كَٰفِرِينَ﴾ لأنهم سألوا أنبياءهم أشياء، فلمّا أمروا بها تركوها فهلكوا.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ ردٌّ وإنكارٌ لما ابتدعه

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ١٣/٢٢٦ ومسلم في الفضائل رقم ٢٣٥٨ باب توقيره ﷺ.

(٢) ورد عن حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس في تفسير هذه الآية أن المعنى: لا تسألوا عن أشياء خفيَّة، يكون في الإخبار عنها مساءة لكم، إمَّا لتكليف شرعي يلزمكم، وإمَّا لخبر محزن يسوءكم، مثل الذي سأل الرسول ﷺ: مَنْ أبي؟ ولكنْ إذا نزل القرآن بشيء، وابتدأكم ربكم بأمر، فحينئذٍ إن سألتم عن بيانه بُيِّن لكم. نقله صاحب البحر المحيط ٤/٣١.

أهل الجاهلية، وهو أنهم كانوا إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن، آخرُها ذكر، بَحَروا أذنها ـ أي شقّوها ـ وخلَّوا سبيلها، فلا تُركب ولا تُحلب، وكان الرجل منهم يقول: إن شفيتُ فناقتي سائبة، ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، فإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم، وإذا ولدت ذكراً فهو لآلهتهم، وإذا ولدتهما قالوا وصلت الأنثى أخاها فلا يُذبح لها الذكر، وإذا جاء من صلب الفحل عشرة أبطن حرَّموا ظهره، ولم يمنعوه من ماء ولا مرعى، وقالوا: حمى ظهره، ومعنى ﴿ما جعل﴾ أي ما شرع ووضع ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ حيث يفعلون ما يفعلون، ويقولون: الله أمرنا بهذا، وأول من سيَّب السوائب، ونصب الأنصاب، وغيَّر دين إبراهيم هو «عمرو بن لُحَيّ» ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أن ذلك افتراء باطل، ولا يعرفون الحلال من الحرام، ولكنهم يقلّدون كبارهم، ومنهم من يعرف بطلان ذلك، ولكن منعهم حبُّ الرياسة، وتقليد الآباء أن يعترفوا به.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي لأولئك المشركين على سبيل الإرشاد إلى الحق ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الكتاب المبين للحلال والحرام ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ الذي أنزل عليه ذلك، لتميّزوا الحرام من الحلال ﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ في هذا الشأن فلا نلتفت لغيره، وفي الآية بيان لعنادهم، وانهماكهم في التقليد، واستعصائهم على الهادي إلى الحق ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي أيقولون هذا القول، ولو لم يكن آباؤهم يعقلون شيئاً من الدين، ولا يهتدون إلى الحق؟ والهمزة للإنكار، والتعجيب، وفائدة التعجيب المبالغة في الإنكار، ودلت الآية أن الاقتداء إنما يصح، بمن عُلِم أنه عالم مهتد، فلا يكفي التقليد للجاهل الذي ليس له حجة صحيحة من شرع ودين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة، الذين ماتوا على الكفر، فقيل لهم ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي الزموا أمر أنفسكم وإصلاحها ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ أي لا يضركم ضلال من ضلَّ، إذا كنتم

مهتدين، ومن جملة الاهتداء أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، لحديث «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يُغيِّروا ولا يُغيِّروا، إلاَّ يوشك أن يعمَّهم الله بعقاب»[1] وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل أنه قال يا رسول الله أخبرني عن قول الله عزَّ وجلَّ ﴿لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ فقال ﷺ يا معاذ: «مروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، فإذا رأيتم شحاً مطاعاً، وهوىً متَّبعاً، وإعجاب كل امرىءٍ برأيه، فعليكم أنفسكم، لا يضركم ضلالةُ غيركم»[2] ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى أحد سواه ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾ رجوعكم يوم القيامة ﴿جَمِيعٗا﴾ بحيث لا يتخلف عنه أحد ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ بالثواب والعقاب ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا من أعمال الهداية والضلال.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨ ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم رقم ٤٣٣٨ والترمذي في التفسير رقم ٣٠٥٩ وفي الفتن رقم ٢١٦٩.

(٢) أخرجه ابن مردويه، ورواه الترمذي بأوسع من هذا رقم ٣٠٥٨ في كتاب التفسير.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي يا من صدقتم بالله ورسوله ﴿ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ المراد ههنا الإشهاد في الوصية، أي أشهدوا بعض المسلمين العدول عند الوصية ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ أي شارفه وظهرت علائمه ﴿ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ﴾ أي حين تريدون تقرير الوصية على أنفسكم، ونبهت الآية على أن الوصية من المهمات المقررة، التي لا ينبغي أن يتهاون بها المسلم، ويذهل عنها ﴿ ٱثْنَانِ ﴾ أي شهادة اثنين، لفظه خبر ومعناه أمر، يعني ليشهدْ اثنان ﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ أي من أقاربكم المسلمين، لأن الأقارب أعلم بأحوال الميت، وأنصح له، وأقرب إلى تحري ما هو أصلح له ﴿ أَوْ ءَاخَرَانِ ﴾ أي شهادة آخرين ﴿ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ أي من غير المسلمين، كما روي عن ابن عباس، وابن مسعود، واختاره جماعة من المتأخرين ﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي سافرتم فيها ﴿ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي فقاربكم الأجل حينئذ، وليس معكم من أهل الإسلام من يتولى أمر الشهادة، كما هو الغالب المعتاد في الأسفار، فليشهد آخران على الوصية ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا ﴾ أي تقفونهما للتحليف ﴿ مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي من بعد صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس، ولأن جميع الأديان يعظمونه ويجتنبون فيه عن الحلف الكاذب، والخطاب للموصى لهم، وقيل للورثة، وقيل للحكام والقضاة ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ ﴾ فيحلفان به تعالى ﴿ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾ معترضة بين القسم وجوابه، أي إن ارتبتم في شأنهما بخيانة، وأخذ شيء من التركة فحلفوهما ﴿ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا ﴾ جواب القسم والمعنى: لا نأخذ لأنفسنا عَرَضاً من الدنيا، بالحلف الكاذب أي لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال ﴿ وَلَوْ كَانَ ﴾ أي المقسم له ﴿ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ أي قريباً منا ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ ﴾ أي الشهادة التي أمر الله، بحفظها وتعظيمها ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴾ أي إن كتمناها نكون من الظالمين، المستحقين للعقوبة.

﴿ فَإِنْ عُثِرَ ﴾ أي اطلع بعد التحليف ﴿ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾ أي فعلاً يوجب إثماً من تحريفٍ، أو كتمٍ، بأن ظهر بأيديهما شيء من التركة

﴿فَٱخَرَانِ﴾ أي فرجلان آخران ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي يقومان مقام الذين عثر على خيانتهما، لإظهار الحق، وإبراز كذبهما ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ أي من أهل الميت والمراد من ﴿الأولَيَيْن﴾ الأقرباء إليه وهما في الحقيقة الآخران القائمان مقام الذين استحقا إثماً ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ﴾ أي ليميننا ﴿أَحَقُّ﴾ بالقبول ﴿مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾ أي من يمينهما ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ عليهما بإبطال حقهما ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي الظالمين أنفسهم، والمراد بالشهادة عند الكثيرين ومنهم ابن عباس اليمين، ﴿وما اعتدينا﴾ أي ما تجاوزنا في شهادتنا الحق، وما اعتدينا عليهما بإبطال حقهما، ومعنى الآيتين عند المفسرين: أن المحتضر إذا أراد الوصية، ينبغي أن يُشهد عدلين من ذوي دينه، أو نسبه، فإن لم يجدهما، بأن كان في سفر فآخران من غيرهم، ثم إن وقع ارتياب في صدقهما، أقسما على صدق ما يقولان، بالتغليظ في الوقت، فإن اطلع على كذبهما بأمارة، حلف آخران من أهل الميت، وادعى أن الحكم منسوخ. قال الزجاج: إن هذه الآية من أشكل ما في القرآن، وقال الفخر الرازي: إن هذه الآية في غاية الصعوبة، إعراباً وحكماً وسبحان الخبير بحقائق كلامه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الحكم المذكور ﴿أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أي أقرب أن يؤدي الشهود، الشهادة على وجهها الذي تحمّلوها عليه، من غير تحريف ولا خيانة فيها، خوفاً من العذاب الأخروي ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ معطوف على مقدر كأنه قيل: ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها، ويخافوا عذاب الآخرة، بسبب اليمين الكاذبة، أو يخافوا الافتضاح بإبطال أيمانهم، والعمل بأيمان الورثة، فينزجروا عن الخيانة، فأي الخوفين وقع حصل المقصد، الذي هو الإتيان بالشهادة على وجهها ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة أحكامه التي من جملتها ما ذكر ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ ما تؤمرون به سماع طاعة وقبول ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن الطاعة.

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ منصوب بمضمر، أي واحذروا يوم يجمع الله الرسل، فإن تذكُّر ذلك اليوم الهائل، مما يضطرهم إلى تقوى الله عزّ وجل، وتخصيص الرسل بالذكر لبيان شرفهم وفضلهم، وتعظيم شهادتهم، فالشهود في الآخرة رسل الله المكرمون، وأما الحشر فلجميع الخلائق كما قال سبحانه: ﴿ذلك يوم مجموعٌ له الناسُ وذلك يوم مشهود﴾[1] ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم مشيراً إلى خروجهم عن عهدة الرسالة، ماذا أجابتكم به أممكم؟ ولما كان سبحانه مطلعاً على أحوال الرسل، لم يقل لهم: هل بلغتم رسالاتي؟ وإنما قال: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾؟ أي ما الذي أجابتكم أممكم، حين دعوتموهم إلى الإيمان؟ هل أجابوكم إجابة قبول، أو إجابة رد ﴿قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ قالوا ذلك تأدباً أي علمنا ساقطٌ مع علمك، كأنه لا علم لنا، فوَّضوا الأمر إلى علمه تعالى، لما اعتراهم من مقاساة الأهوال والشدائد من أممهم، إظهاراً لعجزهم عن بيانه لكثرته وفظاعته، وفيه التشكي منهم، ورد الأمر إلى علمه تعالى، والعلَّام صيغة مبالغة، والمراد به الكامل في العلم.

---

(١) سورة هود، آية: ١٠٣.

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ في الآية تذكير بعبودية عيسى، وتوبيخ لمن عبدوه من دون الله، وتخصيصه بالخطاب من بين الرسل، لِمَا أن شأنه متعلق بكلا الفريقين، من أهل الكتاب اليهود والنصارى ﴿ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ أي اذكر إنعامي إليكما، وفضلي عليكما، وتذكيره بالنعمة ليكون توبيخاً ومزجرة للكفرة المختلفين في شأنه، ثم وضَّح طرفاً من هذا الإنعام فقال: ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ أي حين أمددتك وقويتك بالروح الطاهرة المقدسة «جبريل» عليه السلام ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أي تكلم الناس وأنت طفل رضيع في فراشك، وهذه معجزة ظاهرة، حيث لم تجر العادة بكلام الصبي حديث الولادة، كما تكلمهم في سن الكهولة والشيخوخة، وهذه معجزة أخرى، تدل على حياته في السماء، حيث رفعه الله إليه، وسينزل إلى الأرض في آخر الزمان، ليكلم الناس بحقيقة أمره ورسالته، وليس كما زعم اليهود أنهم صلبوه واعتقد به النصارى ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ﴾ أشارت الآية إلى أن تلك الخوارق، ليست من قبل عيسى بل من جهته سبحانه، أظهرها على يديه معجزة له ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ أعيدت «إذ» لكون إخراج الموتى من قبورهم، لا سيما بعدما صاروا رميماً، معجزة باهرة، حَرِيَّةٌ بتذكير وقتها صريحاً ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ ﴾ يعني اليهود، حين همُّوا بقتله، ولم يتمكنوا منه ﴿ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي حين جئتهم بالمعجزات الواضحة، مما ذكر ومما لم يُذكر، كالإخبار بما يأكلون، ويدخرون في بيوتهم، ونحو ذلك ﴿ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فإن قولهم ذلك مما يدل على أنهم قصدوا اغتياله، أي كففتهم عنك حين قالوا ذلك، عند مجيئك إياهم بالبينات، فزعموا أن هذه الخوارق، ما هي إلا من قبيل السحر الواضح.

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ .

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ ﴾ معنى الإيحاء إليهم، أمره تعالى إليهم في الإنجيل، أي حين أمرت الحواريين وقذفت في قلوبهم، فجاء استعمال الوحي بمعنى الأمر، وإنما لم يترك الوحي على ظاهره، لأنه مخصوص بالأنبياء، والحواريون ليسوا كذلك ﴿ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ أن مفسرة لما في الإيحاء من معنى القول، كأنه قيل: آمنوا بوحدانيتي، وبرسالة رسولي، وفيه إشارة إلى عدم إخراجه عن حد الرسالة، فهو رسول وليس بإله ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ طبق ما أُمرنا به ﴿ وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ أي مخلصون في إيماننا، وهذا القول منهم نعمة جليلة، كسائر النعم عليه وعلى والدته أيضاً.

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ كلام مستأنف، مسوق لبيان ما جرى بينه عليه السلام وبين قومه، منقطع عما قبله كما ينبىء عنه الإظهار ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الأظهر من أقوال المفسرين، أن هذا السؤال من الحواريين، لم يكن عن شك وارتياب في قدرة رب الأرباب، وإنما كان سؤال استفسار واستخبار، عن إنزال الله المائدة من السماء، فسؤالهم كان للاطمئنان والتثبت، ولكنهم أخطأوا في التعبير فقالوا: ﴿هل يستطيع﴾ ويريدون به: هل يفعل ربك ذلك، فإنهم كانوا مؤمنين، وأُيد ذلك بقوله تعالى: ﴿فمن يكفر بعد منكم﴾ الآية، ومعنى: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ ﴾ هل يجيبنا ربك إلى هذا الطلب، فينزل علينا

مائدة، والمائدة في المشهورِ الخِوان الذي عليه الطعام، ﴿قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ من أمثال هذا السؤال، واقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بكمال قدرته تعالى وصحة نبوتي، أو صَدَقتم في ادعائكم الإيمان.

﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال وهو أن يتمتعوا منها ولسنا نريد من السؤال إزالة شبهتنا في قدرته سبحانه وفي صحة نبوتك وليس مرادنا اقتراح الآيات بل مرادنا ما ذكر ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بازدياد اليقين ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ علم مشاهدة على ما قدمناه ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ عند من لم يحضرها ليزداد المؤمنون بشهادتنا إيماناً.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ لما رأى عليه السلام أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، قام فألقى عنه الصوف، ولبس الشعر الأسود، ثم توضأ واغتسل، ودخل مصلاه فصلى ما شاء الله، ثم دعا الله فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾ ناداه سبحانه وتعالى مرتين مرة بوصف الألوهية، ومرةً بوصف الربوبية، إظهاراً لغاية التضرع، ومبالغة في الاستدعاء، حذف حرف النداء في الأول وعُوّض عنه الميم، أي يا أله يا ربنا ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي أنزل علينا مائدة فيها الطعام، من محض فضلك وعطائك، من عندك، قال عمار بن ياسر: إن المائدة التي نزلت كان عليها من ثمر الجنة، ومن طعام الجنة، وقال سلمان الفارسي: إن المائدة لما نزلت قال شمعون رئيس الحواريين: يا روح الله!! أمن طعام الدنيا هذا، أم من طعام الجنة؟ فقال له: ليس من طعام الجنة، ولا من طعام الدنيا، إنما هو شيء ابتدعه الله فقال له كن فكان ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي يكون يوم نزولها عيداً نعظّمه، ويكون يوم فرح ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أي لمن في زماننا من أهل ديننا، ولمن يأتي بعدنا ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ أي آية كائنة منك، دالة على كمال قدرتك، وصحة نبوتي ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ صنوف الطعام في هذه المائدة ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي خير من يرزق، لأنه خالق الأرزاق، ومعطيها بلا عوض.

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ إجابةً لسؤالكم، أي سأنزل المائدة من السماء حسب طلبكم ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ﴾ أي بعد تنزيلها ﴿مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ﴾ بسبب كفره بعد معاينة هذه الآية ﴿عَذَابًا﴾ اسم مصدر بمعنى التعذيب ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾ أي أعذبه تعذيباً لا أعذّبه مثل ذلك التعذيب ﴿أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أحداً من البشر. روى الترمذي عن عمّار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزلت المائدةُ من السماء، خبزاً ولحماً، وأُمروا أن لا يخونوا، ولا يدّخروا لغدٍ، فخانوا، وادخروا ورفعوا لغدٍ، فَمُسِخوا قردة وخنازير»[1].

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ أي اذكر وقت قوله تعالى لعيسى ابن مريم في الآخرة، توبيخاً للكفرة ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾ أي أأنت دعوت الناس إلى عبادتك، والاعتقاد بألوهيتك وألوهية أمك؟ ﴿مِن

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/ ٢٤٢ برقم ٣٠٦١.

﴿دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي من غير الله تعالى، فجعلت نفسك في مقام الألوهية، وإنما سأله ذلك على رؤوس الأشهاد في الآخرة، توبيخاً لمن عبد المسيح، ليكون إنكاره أبلغ في التكذيب، وأشد في التقريع والتأنيب ﴿قَالَ﴾ أي عيسى عليه السلام ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي تنزيهاً لك يا رب من أن أقول ذلك، وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي ما ينبغي لي أن أقول قولاً، لا يحق لي أن أقوله، فأنا عبد لك ولستُ برب، وأنت وحدك المعبود في هذا الوجود، فكيف أدعوهم إلى عبادتي؟ وقوله: ﴿ما يكون لي﴾ أي لا ينبغي ولا يليق بي، أبلغ من «لم أقله» فلذا أوثر عليه، ثم أكَّد ذلك بحجة أخرى، على سبيل الترقي، فقال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ مقرر لعدم صدور القول المذكور، لأن صدوره عنه مستلزم لعلمه تعالى، فحيث انتفى علمه سبحانه به، انتفى صدوره عنه ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ تعلم ما أخفيه في نفسي كما تعلم ما أعلنه ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك، وقوله: ﴿في نفسك﴾ للمشاكلة، أو المراد بالنفس الذات، أي تعلم ما أضمره في ذاتي، ولا أعلم حقيقة ذاتك وما فيها من صفات الكمال، والآية مبالغة في الأدب، وتفويض الأمر إليه سبحانه ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ تعليل وتقرير للجملتين باعتبار منطوقه ومفهومه أي إنك أنت العالم بالخفايا والنوايا، وعلمك محيط بما كان ويكون.

ثمَّ بين ما قاله عليه السلام لقومه بقوله:

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ أي ما أمرتهم إلا ما أمرتني به، ثم فسر ما أُمر به ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أن مفسرة والمعنى: قلتُ لهم: اعبدوا الله خالقي وخالقكم، فأنا عبد لله مثلكم ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ رقيباً أراعي أحوالهم، وأمنعهم عن المخالفة، وشاهداً لأفعالهم من إيمان وكفر، وفي أناجيلهم ما رواه يوحنا عنه: «وهذه هي الحياةُ الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك» ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي كنت شهيداً عليهم مدة دوامي فيما بينهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ بالرفع إلى جنابك ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي

الحافظ لأعمالهم، والمراقب لحركاتهم، والشاهد على أفعالهم ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي وأنت المطّلع على كل شيء، لا يخفى عليك أمر من أمور العباد.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وقد استحقوا ذلك حيث عبدوا غيرك، أي إن تعذبهم فإنك تعذب عبادك، ولا اعتراض على المالك فيما يفعل بملكه، فأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت، لا اعتراض عليك في فعلك ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي وإن تغفر لهم ما اقترفوا من جرائم وذنوب، ومقصوده تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى وترك التعرض لهذا الباب ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي القوي القادر على جميع المقدورات، ومن جملتها الثواب والعقاب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة ومصلحة.

﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ أي يقول الله تعالى يومئذ، عقيب جواب عيسى مشيراً إلى صدقه ﴿هَٰذَا﴾ أي هذا اليوم ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أي المستمرين على الصدق، الذين صدَّقوا رسل الله في الدنيا، وصَدَقوا في إيمانهم وطاعتهم لله، ينفعهم صدقهم لأنه يوم الجزاء على العمل، ويوم فوز المؤمنين الصادقين ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي لهم حدائق وبساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة، ماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي نالوا رضوان الله لصدقهم ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ لحصول المقصد الأقصى، وهو الفوز بجنات النعيم ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ كما أن عظم شأن الفوز، تابع لعظم شأن المطلوب، وهو الجنة دار السرور والحبور.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ تحقيق للحق، وتنبيه على كذب النصارى، وفساد ما زعموا، أي له خاصة ملك جميع ما في الكون، خلقاً وملكاً، وتصرفاً لا مالك سواه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي القادر على كل شيء، هذه السورة اشتملت على أنواع من العلوم، منها بيان الشرائع

والأحكام، ومنها المناظرة مع اليهود والنصارى، فختم بهذه الآية للإشارة إلى أن كل ما سوى الحق سبحانه موجود بإيجاده، يتصرف في الكل، بالأمر والنهي، والإيجاد والإعدام، وهو الملك العلام، نسأل الله أن يوفقنا لمرضاته، ويجعلنا من الفائزين بجناته ورضوانه.

«تم تفسير سورة المائدة والحمد لله رب العالمين»

* * *

obeikandl.com